منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (3261) السنة الثانية عشرة - الأربعاء (14) كانون الثاني 2015

WWW. almadasupplements.com

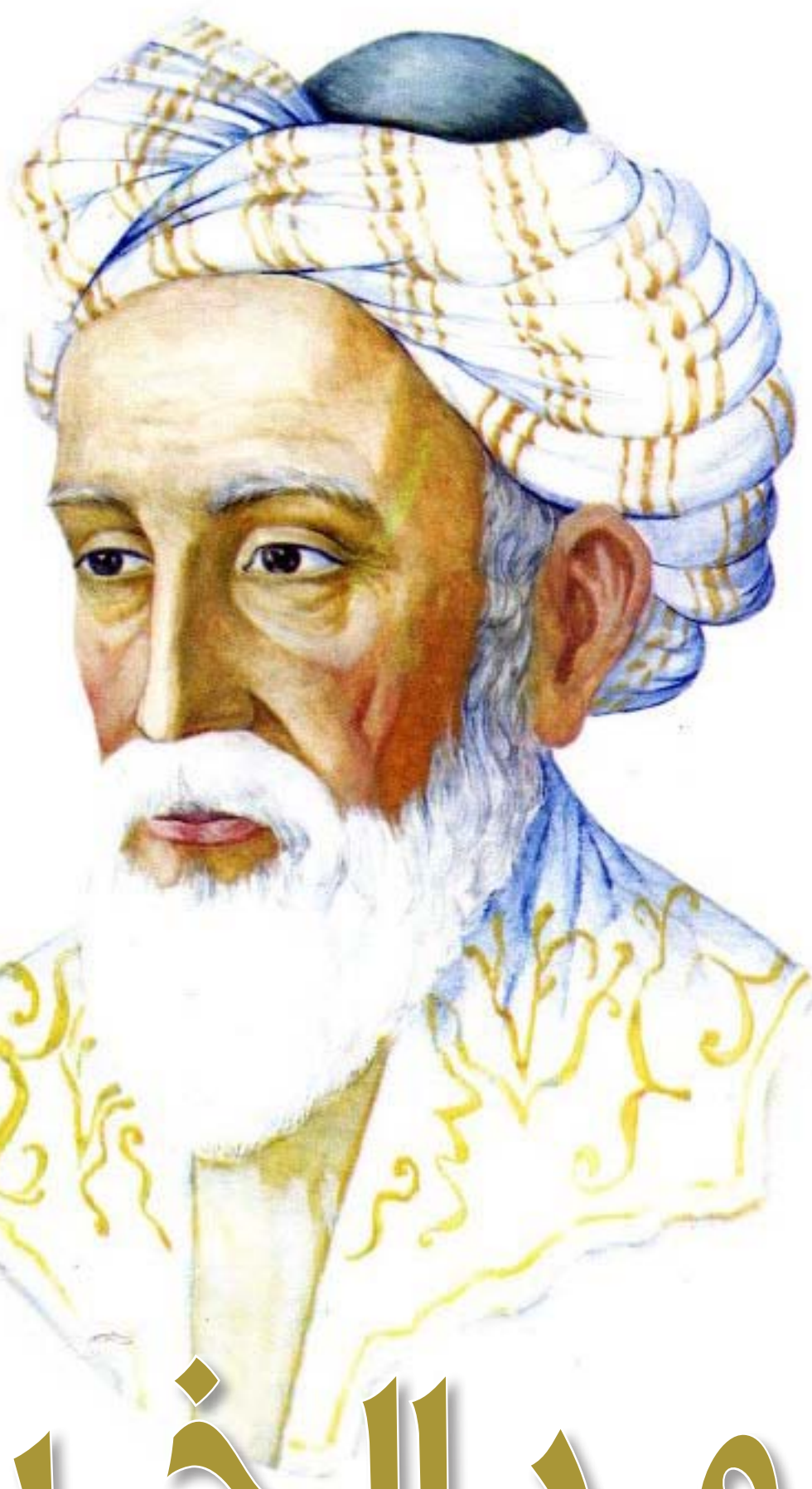

عمر الخيام

عمـــر الخـــيام.. الشاعر الفيلسوف

اعداد / منارات

هـو الحكيـم والفلكـي وعـالم الرياضـيات والشـاعر والموسـيقي غيـاث الديـن أبـو الفتـح عمـر بـن إبراهيم الخيـام النيشابوري، ولـد في نيشابور عاصمة خراسان في القـرن الخامـس الهجري(٤٣٦-٥١٧هـ / ١٠٤٤ – ١١٢٣م) وكان في صغـره يشتغل في حرفة صنع الخيام ولهـذا لقب بالخيام، بدأ تعليمه الأولي في إحدى مدارس نيشابـور بتعلم القـراءة والكتابة، انتقـل كثيراً في طلب العلم إلى أن استقر عام ٤٦٦ هـ /١٠٤٧ م ببغداد[٤].

إسهاماته العلمية:

لمـا قـوي و اشتـد ساعـده رحـل إلى سمرقنـد لدراسـة الرياضيات،فأنجـز نظامـاً للأرقـام أكـثر اتساعـاً مـن نظـام الإغريق،فألـف كتابـاً بالعربيـة سماه"الجـبر و المقابلة"ترجـم إلى الفرنسية عام ١٨٥١.كما أوجد طريقة لاستخراج جذور الأرقام و عالج لأول مرة مسائل التكعيب في الجـبر،و لمـا برزت موهبتـه في علم الفلـك إلى جانب شهرتـه في الرياضيـات استدعـاه السلطـان السلجوقي ملكشـاه لتعديل التقـويم[٥]،و كلفه ببنـاء برج فلكي في أصفهان.عُرف الخيام بصفـاء ذهنه فكان يحفظ الكتب لا يفرقهـا عن أصولهـا البتة.و كان قد تأمـل كتاباً بأصفهان و عـاد إلى نيشابـور فحفظه سبع مرات.و لقـد أتاحت له حافظته القوية أن يلم باللغة و الفقه و التواريخ.

و قـد كان الخيـام مقربـاً عنـد ملكشـاه و ينزلـه منزلـة الأصحاب.كمـا كان الخاقـان شمـس الملـوك يعظمه غاية التعظيم،و يجلسه معه على سريره.و تعود شهرة الخيام إلى نبوغه بأعمـال الرياضيات و الفلك.ففي أعمال الجبر اشتغـل الخيام بالمعـادلات محتذياً حذو أستـاذه و عالج المعـادلات التكعيبيـة معالجة منهجية منظمـة،و استطاع الحصـول على أحـد جذورها بطرق هندسيـة باستخدام القطـوع المخروطية،علـى اعتبـار أن الإحداثـي الأفقـي لنقطـة تقاطـع دائرة بقطـاع مخروطي.كمـا كان أول من حاول تصنيف المعادلات حسب درجاتها و حسب الحدود فيها و جعلها محصـورة في ثلاثة عشر نوعاً،و استخرج الجذور لكل درجة من هذه الدرجات،فوصل إلى درجة من النضج الرياضي لم يسبقه إليها أحد.

و لم يتوقـف بحـث الخيـام عنـد تطوير علـم الجبر فقط باعتبـاره علمـاً مستقـلاً، بـل و تمكـن مـن وضـع حلول للكثـير من حسـاب المثلثـات.و اهتم بإدخـال الجبر على علم المسائـل الصعبة في علم حسـاب المثلثات باستعماله المعادلات الجبرية ذات الدرجة الثالثة و الرابعة.

كمـا امتدت إسهامـات الخيـام إلى الهندسـة، فعكف على دراسة هندسـة اقليدس المشروحة و المعلق عليها من قبل علماء الرياضيات المسلمين،فأولاها عناية شديدة، و ابتكر في برهانـه على المصادرة الخامسة من ابن الهيثم برهاناً جديداً بخـلاف ذلك الذي قدمته مصادرات اقليدس.و كان الخيام شغوفاً بأعمال الهندسة حتى إنه إذا سئل فيها عن مسألة طول الشرح فيها...

اهتماماته الأدبية:

لم تقتصر أعمال الخيام على الرياضيات فقط،بل تعدتها إلى أعمال أخرى أدبية و شعرية و اشتهرت منها رباعياته التي قرنت باسمه. وإن إجادته للغة العربية و الكتابة بها كانـت حافزاً لـه لقراءة شعـر أبي العـلاء المعري،فكان له الأثـر في شعر الرباعيات لغة و أسلوباً و مضمونا[٦][٧] فلقـب بالحكيم في الثقافتـين الفارسـية و العربية و لقبه الأوروبيون بملك الحكمة.

و قد وقف متأخرو الصوفية على شيء من ظواهر شعره فنقلوهـا إلى طريقتهـم و تحاضـروا بهـا في مجالسهم و خلواتهم.فقـدح أهـل زمانـه فيـه و أظهروا مـا أسره من مكنونه، فخشي على دمه و أمسك من لسانه و قلمه وعكف على الدرس و البحث.

و في آخر أيامه كان يتأمل الإلهيات من كتاب"الشفاء"لأبن سينـا، فلما وصل إلى فصل الواحد و الكثير وضع علامة بـين الورقتين و قـام و صلى و لم يـأكل و لم يشرب، فلما صلـى العشاء سجد و كان يقـول في سجوده:"اللهم إنك تعلم أني عرفتك على مبلغ إمكاني فاغفر لي فإن معرفتـي إيـاك وسيلتي إليـك"[٨] و مات عـن عمر يناهز الواحد و الثمانين سنة.

مؤلفاته:

تـرك عمر الخيام عدداً كبـيراً من المؤلفات في شتى فروع المعرفـة التي كانـت معروفـة في عصره، و مـن أهم هذه المؤلفـات نذكر:"رسالـة في شـرح ما أشكل مـن مصادرة كتاب اقليدس""رسالة في النسب""رسالة في حل المسائل التكعيبية""رسالـة في البحـث عـن فرضيـة المتوازيـات الإقليدسي""رسالـة في ميـزان الحكمـة""و رسالـة في الإحتيال لمعرفة مقدار الذهب و الفضة في جسم مركب"و كتاب"مشكلات الحساب"و"رسالـة في التقويم(التقويم الجلالي)"و"رسالـة في البراهـين علـى مسائل الجبر و المقابلة"و"الرباعيات"و"مقدمـة في المساحة"و"رسالـة في المصادرة الخامسة من مصـادرات اقليدس"و"رسالة في الكون و التكليف"و"رسالة في جواب الثلاث المسائل ضروريـة التعـداد في علـم الجبر"و"رسالـة في الميزان الجبري"وكتاب"المقنـع في الحساب"و"رسالـة في المعادلات ذات الدرجة الثالثة و الرابعة"و كتاب"الموسيقى الكبير"[٩]..

مـن أبـرز حوادث التزويـر في التاريـخ أن معظم الناس يقولـون بأن الخيام لم يكن إلا شاعراً،و الصحيح أنه كان مـن أكبر علماء الرياضيات في عصره،و اشتهر بالجبر و اشتغـل في تحديد التقويم السنـوي للسلطان ملكشاه.و كمـا أشرت إلى ذلك فقد كان لـه السبق في اختراع طريقة حساب المثلثـات و المعادلات الجبرية مـن الدرجة الثالثة بواسطة قطع المخروط.

و بسبـب الفهم الخاطئ لفلسفته و لتصوفه اتهم بالإلحاد و الزندقـة و أحرقـت كتبـه،و لم يصلنـا مـن الكتب التي أشرنـا إليها سوى رباعياته لأنّ القلوب أحبتها و حفظتها مـن الضياع.غير أن الخيـام كان عبقرياً و ملمـاً و مبدعاً أكثر بكثير من كونه شاعراً.و ضياع كتبه في الرياضيات و الفلسفة حرم البشرية من الاستفادة من الإطلاع على ما وضعه في علوم الجبر و الرياضيات.

مـن جهـة أخـرى تم الكشـف عـن جـزء بسيـط فقط من عبقريته،من خلال ما تبقى لنا من رباعياته.و لم لو تُحرق كتبه لساهمت في الكشف عمّا خفي عن العلماء.

رباعيات عمر الخيام:

لم يكـن الخيام نفسه عندما نظـم رباعياته و جمعها يحلم بمـا سيكـون لها من الشـأن بعـده،و خصوصـاً عند أمم غريبـة عنـه وطنـاً و جنساً و لغـة، خاصـة و أن اهتمامه العلمـي كان يفـوق اهتمامـه الأدبـي و الشعـري بـل إنه كان يلجـأ إلى الشعر حينمـا تداهمه موجة من الإرهاق و التعب- حسب ما يذكر لنا التاريخ[١٠]- من شدة الانهماك العلمـي و يتخـذ من الشعـر الوجداني وسيلـة للراحة لما فيـه من إيقاعـات موسيقيـة و آفاق واسعـة تثير البهجة و السـرور في أعماق النفس فيرتمـي في أحضانها هرباً من الجدية العلمية ذات العناء الشديد.و الحق أن الخيام برباعياتـه هذه كسى الأدب الفارسي مطارف لا تبلى على مرور الأيام،و حباه أحسن ما يحبو شاعرٌ لغة من عبقرية ونبـوغ،و قـد كان موفقاً في انتقاء ألفاظـه، فالانسجام و السلاسة و التشبيهات و الاستعارات اللطيفة غير النكدة و عـدم التكلف و السهولـة، كل ذلك من الصفـات البارزة في شعـره، و عباراته و إفاداتـه تقوم حق القيام بأداء ما يحمّلهـا إيّاه مـن المعاني الدالة على مشربـه و فلسفته...

لقـد لقيـت هـذه الرباعيات مـا لم يكـن بحسبـان الخيام و لا غـيره مـن التهافـت على دراستهـا و نقلهـا إلى لغات العـالم كالإنجليزيـة و العربية و الفرنسيـة و الألمانية و الدانمركية و الإيطالية و اللاتينية و الأرمينية و التركية و...هذا مع العلم أنه لم يعرف في وطنه و بين بني جلدته و لسانـه بكونه شاعـراً إلاّ في وقت متأخر، و لعل السبب في ذلـك يرجـع إلى كونه كتب جميـع مؤلفاتـه باستثناء البعض اليسير منهـا باللغة العربية التي كانت آنذاك لغة الخاصة مـن أهل الفكر.أما أشعاره التـي كان يطلقها من حين لآخر فكان ينظمها بلغته الأم،أي اللغة الفارسية التي هي أقرب ما تكون إلى مشاعره..

يعـزي الأسـتـاذ العلامة الفيلسـوف التركي رضا توفيق بك في كتابه"رباعيات خيام"[١١] إقبال الأوروبيين على شعر الخيام إلى كونه منبعث عن فهم الخيام لمعنى الحياة وفـق عقيدة المدنية الحاضـرة و ذوقها،و يقول أنه أفادته دساتـير هذه العقيـدة الأساسيـة في رباعياتـه بأسلوب شعـري بديـع،و لم تلتفت أمم الغـرب إلى الخيـام هـذا الالتفات إلا لأنها نظـرت إليه نظرها إلى أوروبي معاصر حكيـم و عملـت بمـا في تعاليمه من حكمـة و مضت على طريقته.

شـيوع الرباعيات و ترجمتها إلى لغات أجنبية:

عندما دخل العرب بلاد الأندلس بدأ المؤلفون الأوروبيون يتصلـون بهم،فنقل"لان غا انطوان"مـن مختارات ألف و ليلة إلى اللغة الفرنسية، ثم تُرجمت إلى اللغات الأوروبية حيـث تركـت آثارهـا علـى أعمال"فولتير"و"جوتـه"و غيرهما،كمـا ظهـرت تأثـيرات ترجمـة أشعـار حافـظ الشـيرازي و المعلقـات السبـع و حكايـات شهـر زاد في الأعمال الإبداعية الغربية.

و قـد ظلـت رباعيـات الخيـام مخطوطـة في الشـرق و الغرب حتـى منتصف القرن التاسع عشـر حيث اكتشفها الأوروبيـون..و يعتـبر ادوارد فيتـز جرالـد الشاعـر الإنجليـزي مـن أهـم الذيـن ترجمـوا رباعيـات الخيـام بأسلوبـين مختلفين،فكانـت إحداهمـا الترجمـة النثرية الحرفية التي التزمت بالمضمون الدقيق للنص،و الأخرى الترجمة الشعرية التي وضعت المضمون في قالب الشعر الإنجليزي.

و يرجـع اهتمام فيتز جرالد بـالأدب الفارسي منذ أن كان طالبـاً بجامعة كمـبردج و بعد تخرجه ترجـم أعمال كبار شعـراء الفرس إلى الإنجليزيـة سنـة ١٨٥٦م ثـم اهتم اهتمامـاً خاصـاً برباعيـات الخيـام معتمـداً في ذلك على نسختـين خطيتـين مـن الرباعيات حيـث أصـدر الطبعة

الأولى لترجمة الرباعيات سنة ١٨٥٩م في ٩٥ رباعية، ثم أضاف في الطبعات التالية ترجمات لرباعيات أخرى حتى بلغ عدد الرباعيات التي ترجمها ١٤١ رباعية،و بهذا تكون هذه الترجمة باكورة الترجمات الأخرى لهذه الرباعيات.

و قد نجحت ترجمة فيتز جرالد في أن تتغلغل في الثقافة الإنجليزية بفعل جاذبيتها لدرجة أن عناصر منها أصبحت تعتبر اليوم من قبل البعض و كأنها إنجليزية أصيلة. كما أصبحت أبيات الرباعيات الفارسية هذه و التي كتبت في القرن الثاني عشر من أكثر القصائد الغنائية انتشاراً بترجمتها الإنجليزية بين الناطقين بها،و في هذا الصدد يقول ارتور آربيري في مقدمة ترجمته لرباعيات الخيام: "لا يوجد بيت في بريطانيا لا يعرف هذا الكتاب (الرباعيات) بشكل أو بآخر.حتى أن الجنود البريطانيين كانوا يصطحبونه معهم خلال الحربين العالميتين الأولى و الثانية"[١٢]. و تحول الكثير من أبيات الرباعيات إلى تعابير شائعة في اللغة الإنجليزية من مثل: "ما تفتحت وردة إلا ذبلت" و "من يبع نقداً نجحت تجارته" و "يكفيني رغيف و ماء و أنت".و من بين كل أبيات الرباعيات شهرة:

وقت سحر است خيز اى مايه ناز نرمك نرمك باده خور و جنك نواز
كه آنها كه بجايند نبايند كسى و آنها كه شدند كس نمى آيد باز

أي:

يا صاحبَ الدّلّ هذا الفجرُ لاحْ فقمْ و غنِّ و اشربْ و أطفئْ حُرقةَ الكبدْ
فمن تراهُم هنا لن يلبثوا أمدا و لن يعودَ من الماضين أحد[١٣]

بعد ترجمة فيتز جرالد ترجمت رباعيات الخيام إلى معظم اللغات الأوروبية، وكان لها أثرها في تشكيل النظرة الأوروبية للآداب و الثقافة الفارسية و الشرقية،رغم أنه تأثير غير واضح أحياناً،فقد تُرجمت إلى لغات أوروبية أخرى كالفرنسية و الألمانية،و نتج عن هذه الترجمات أن أصبح عمر الخيام معروفاً كأشهر الفارسيين في الغرب،بالرغم من وجود شعراء كبار.و من الجدير بالذكر أن كل رباعية من رباعيات الخيام كانت قد كتبت مفردة و في مناسبتها الخاصة لتكون قطعة بحد ذاتها، لكن فيتز جرالد في ترجمته لها رأى أن يدمج رباعيات الخيام في قطعة واحدة و ذلك بإيجاد علاقة بين كل رباعية و أخرى لإعطاء عمل متكامل مترابط مع بعضه.

أما اكتشاف الرباعيات عربياً فقد بدأ في العقد الثاني من القرن العشرين حينما نقلها إلى العربية "وديع البستاني" و منذ ذلك الحين شهدت الرباعيات ترجمات عديدة إلى اللغة العربية منقولة عن اللغتين الفارسية و الإنجليزية، و أنجزها كلٌ من "محمد السباعي" و "محمد الهاشمي" و "أحمد رامي" و "أحمد الصافي النجفي" و "وهبي التل المعروف بعرار" و "محمد بن تاويت" و غيرهم.و قد أجمع النقاد على أهمية الترجمة الشعرية لأحمد الصافي النجفي و ترجمة أحمد رامي.و لما كانت رباعيات الخيام تبث الدعوة إلى اكتشاف جماليات الحياة و الحب و تحرير العقل و الحواس من الهموم و المخاوف و الأوهام،فقد لاقى الخيام هجوماً على رباعياته و اتهاماً بالزندقة من قبل المتعصبين أمثال الرازي في كتابه "مرصاد العباد"[١٤] الذي وصفه بالدهري التائه في ميدان الضلال، أما الصوفيون فاعتبروا شعره أفاعي سامة و ألبوا عليه العامة من الناس فخاف على دمه و أمسك من عنان لسانه و قلمه، و ذهب إلى الحج. و قد اختلف الباحثون في وصف شخصية الخيام، فبعضهم يعتبره رجل علم لا علاقة له بالرباعيات لما فيها من أفكار حرة و دعوة إلى الحياة كما ورد في شعر من سبقوه أو عاصروه أو جاءوا بعده أمثال "رودكي" و "عسجدي" و "أ نوري" و "حافظ" و "أبو نواس"، و البعض يرى أن العالم يمكن أن يقول شعراً في الغزليات و الخمريات و التأمل في حال الوجود و أسئلة الحياة و الموت.

و هناك تشابه بين شعر الخيام و المعري من حيث نقاط الالتقاء و الاختلاف بينهما فيبرز الالتقاء في طرح الأسئلة الجريئة المتأملة الحائرة في الحياة و سر الوجود، بينما يظهر الخلاف واضحاً في زهد أبي العلاء المعري و انصرافه عن الملذات التي يدعو الخيام إلى استنزافها.و مع هذا الاختلاف فإن ما يجمع بينهما هو الحكمة و الذكاء[١٥].

و إننا لنتساءل عن علة و سر هذا التأثير الشديد غير المتوقع لرباعيات الخيام في الغرب، ولعل الجواب على ذلك هو أن الغرب رأى فيها ضياعه و حيرته، وكأنه يرى نفسه في مرآة، تلك النفس الأوروبية التي كانت تعيش حالة من المد و الجزر بين عالمي المادة و الروح. و من بين مشاهير المختصين بعمر الخيام في الغرب إضافة إلى الشاعر الإنجليزي المذكور فيتز جرالد، الأستاذ الإنجليزي "آربيري" و الأستاذ التشيكي "ريبكا". أما الفيلسوف "نوستراداموس" فإنه بدوره شغل الناس بفلسفته،و وجه التشابه بينه و بين الخيام هو الرباعيات المعبرة عن لحظة تكثيف لمفهوم و رؤية محددة للوجود و الذات، و لكن الاختلاف بينهما يكمن في ذهاب "نوستراداموس" بعيداً في الماورائيات باحثاً عن تلمس ما سيأتي و غارقاً في الغموض،فيما تبحر الخيام في تأصيل الذات و كنه الوجود متماهياً مع الحقيقة الكلية و العلة الأولى لهذا الوجود.إن جملة المقارنات التي قام بها المؤلفان بين هذه الشخصيات،إنما على حد تعبيرهما تبيّن لنا إلى أي مدى يتناسخ الأقطاب و العباقرة و أصحاب القلوب الكبيرة و العقول الواسعة،الشيء الذي يدلل في الوقت ذاته على شمولية الهم الإنساني في الفكر و التأمل.

الاتجاهات النظرية و مضامين الرباعيات:

لا مجال للشك في أن عمر الخيام شاعر كبير،و لكن لماذا لم يكن معروفاً كشاعر في الشرق؟ هل كان الشرق ناسياً شاعريته؟

نعلم أن الخيام كان يرى نفسه عالماً، أما رباعياته فكانت بنت اللحظة، و هو لم يجمعها أبداً في ديوان واحد،و إنما اهتم بذلك تلامذته و مريدوه و الأجيال التي أتت من بعده.و قد تسللت إليها بعض الرباعيات الغريبة التي يُشك في نسبتها إلى الخيام،إما عن جهل أو عن قصد.كما أن بعض المقاطع منها كان يُنسخ حسب اتجاه الناسخ أو طالب النسخة.

و إننا لنتساءل عن أصالة كلّ ما لدينا من الرباعيات،ذلك أنه كان يُعتبر بالنسبة للطبقة الشعبية فيلسوفاً، أما بالنسبة لأصدقائه المقرّبين فقد كان يُعتبر متصوفاً.

بقراءة متأنية لكل رباعية من رباعيات الخيام،يمكن للدارس أن يستخلص صورة عن عقلية هذا الشاعر و توجهاته النظرية و الفلسفية.فعمر الخيام كما يبدو من شعره لا بد أنه كان إنساناً شغل تفكيره بالطبيعة الفانية للحياة و غياب الشعور بالأمان فيها و تعمّق جدّاً في محاولة فهمها مثلما يتبين من الأبيات التالية:

از آمدنم نبود كردون را سود و ز رفتن من جاه و جلالش نفزود
و ز هيچ كس نيز دو كوشم نشنيد ز اين آمدن و رفتن ما سود جه بود

أي:

ما نفعَ الدّهرَ مجيئي و لا يزيدُه شأناً رحيلي غدا
ما سمعَتْ أذنايَ من قائلٍ ما نفعُ ذا العيش و جدوى الرّدى[١٦]

×××

دادم بااميد زندكانى بر باد نابوده ز عمر خويشتن روزى شاد
ز آن مى ترسم كه عمر امانم ندهد جندانكه ز روزكار بستانم داد

أي:

بجميلِ الآمالِ أفنيْتُ عمري دون أن أبلغنّ يوماً مرادا

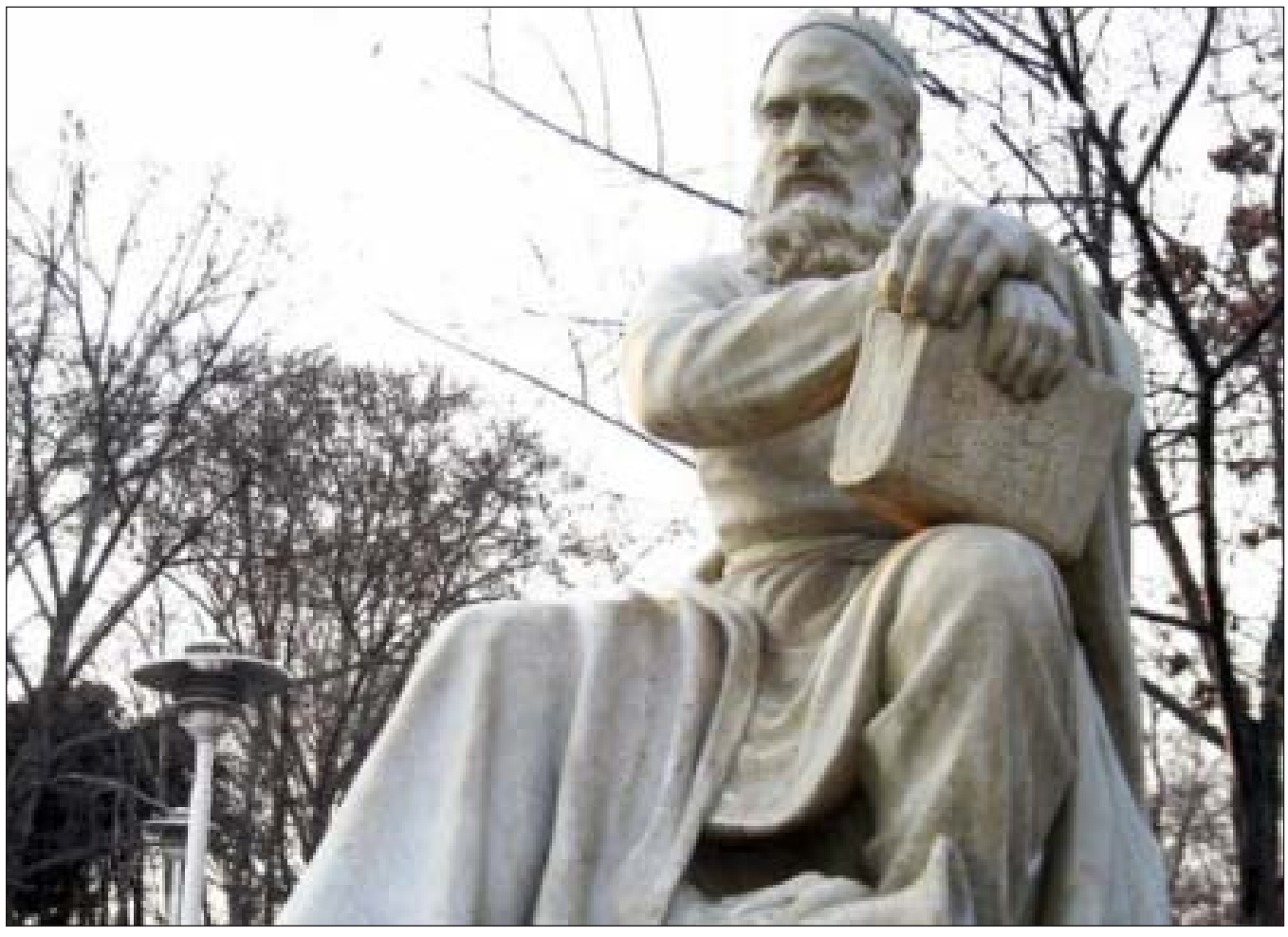

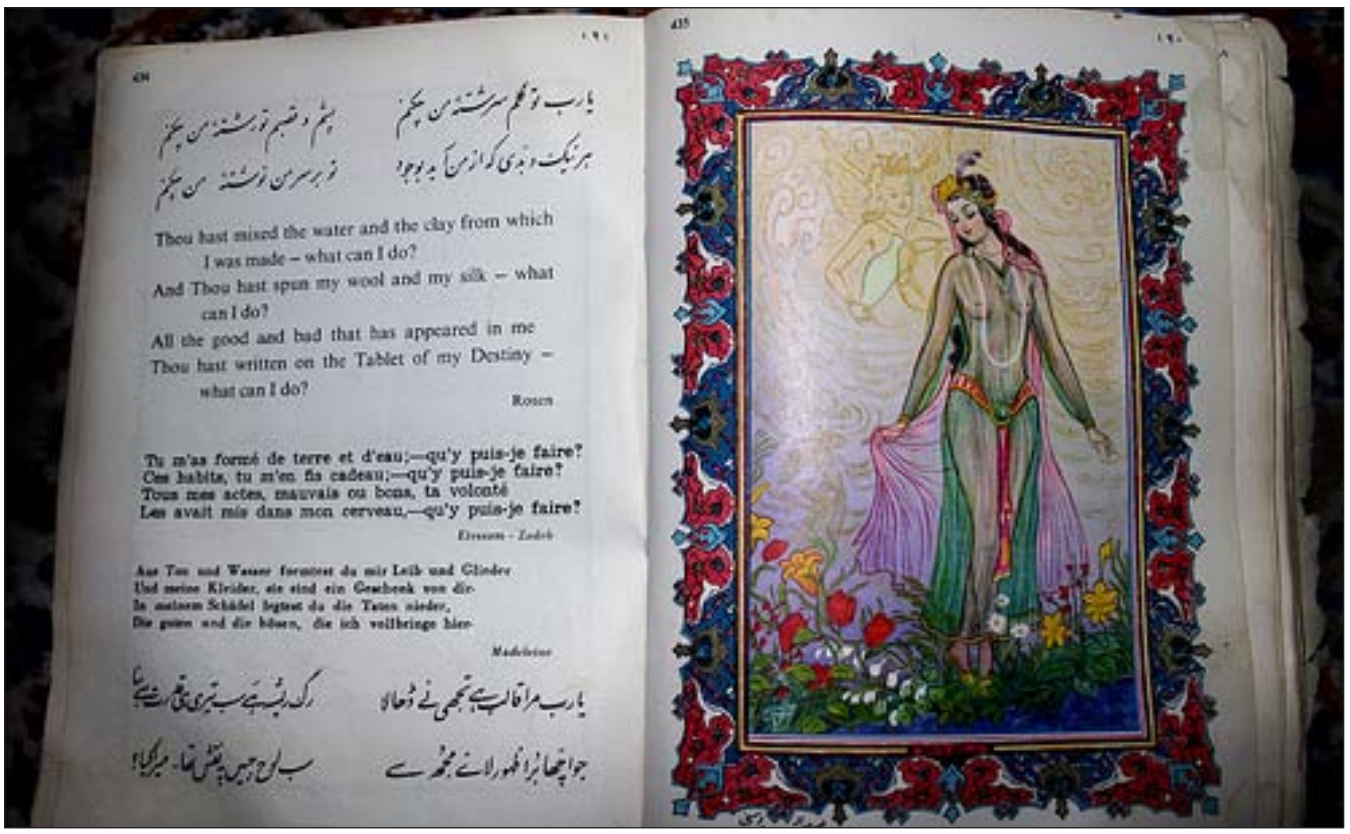

أنـا أخشـى أن لا يساعـدني العمـرُ لأُشفي من الزمان الفؤادا[١٧]

و يبدو أنه لم يتوصل إلى حلول مرضية تخفف حيرته،و هذا ما دفعه إلى محاولة النأي بنفسه عن هذه الجوانب مـن الحياة و التركيـز على الجوانب الماديـة الإيجابية و المبهجـة فيها.غـير أن الأشيـاء المتواضعة التي وجد المتعـة فيها تشـب بعدم عمق وحـدة هاجسـه بالمسائل الفلسفيـة الجوهريـة: الحيـاة و المـوت و السعـادة و الإيمان و غيرها.

لقـد كان سلوك الخيام في ما كتبه مسلك الريب و الشك، وهـزؤه بأهـل زمانـه و طبـاع معاصريـه،و جرأته في القـول على تعـدي حـدود الديـن و الآداب،و استعماله الكنايـات المـرة في الطعن و التشنيع علـى المرائين من أدعياء الزهد و الـورع كل ذلك مما حمل أهل زمانه على أن ينظروا إليه شزرا..

و قد يكـون من دواعي خمول ذكـره في إيران و ذيوعه في الغـرب و احترام الغربيـين و تقديرهم له، أنه سبق زمانه بعصور من الوجهة الفكرية،حتى إنه لم يوجد في إيـران من يبحث عن آثاره و يهتم بطبعها،و كم نجد من العيـب و القبح و الخطأ في نسـخ الرباعيات الفارسية المطبوعـة في إيران و الهند ُذا قيست بنسخ الرباعيات المترجمة في أوروبا و أمريكا من جهة الإتقان و التزيين و التصوير و التذهيب.

قال"تيوفيل غوتيه"أحد الأدباء الفرنسيين المتوفى سنة ١٨٧٢م صاحـب المؤلفات الكثيرة عنـد ذكره الخيام ما يأتي:

"أن رباعيـات الخيـام تحتـوي جميـع مقاطـع هملت قطعة قطعة".

وقال الحكيم المؤرخ"أرنسـت رنان"في بعض كتبه في صـدد موازنته بين أحد الشعـراء و الخيام:"و ليس له قـوة الخيـام و لا تهكمـه و مزاحه الحر،و هـو الذي لم يُشاهد في عصر من العصور شاعر إباحي مثله"

و قال"باربيـه دومنياد"مـن أعاظـم المستشرقـين الفرنسيين عند ذكـره الخيام:"أليس يُعد حادثة غريبة ظهـور شاعر في إيـران في القرن الحـدي عشر للميلاد يكون كما قال رينان نظيراً لغوته و هانري هاينه".

إن أكـثر الكلمات المـترددة على السمع عند قراءة شعر الخيـام هـي: الخمرة، و الحانـة و الساقـي و الكوز و العود و الناي و المغني و أمثال ذلك.و جل المعاني التي ينطـوي عليهـا: العمر سريع الـزوال فيجـب أن ننتهز الفرصـ قبل فوات أوانها.نحن لا ندري من أين أتينا و لا نـدري إلى أين نذهب فلنحسن الاستمتاع بهذه الأيام القليلة التي نعيشها.ليس في طوق البشر الوصول إلى المعرفـة فينبغـي أن نقبل بـكل شيء كمـا وجدناه و لا نفسد علـى أنفسنا ملذاتها.ليس وراء هذا الثرى ثواب و لا عقاب.ليسـت الأيام التـي تنقضي إلا أياماً قصيرة يجب أن نسـارع إلى انتهازها و لو كانت مؤقتة.ليست الحقيقة المجردة لأيام هذه الحياة التي تتقلص و تفيء كالحلـم إلا الشـراب و عشق الجمـال و الشباب و نور القمر يقع علـى أفاريز و نغمات الناي تهتز لها جنبات الفلوات و الكروم:

جـون عهـده نمی شود کسی فردا را حالی خوش کن تو این دل شیدا را

می نوش بنور ماه ای ماه که ماه بسیار بتابد و نیابد ما را

أي:

لئـنْ جالسْـتَ مـن تهـواهُ عمـراً و ذُقتَ جميـع لذاتِ الوجود

فسوف تُفارقُ الدنيا كأنّ الذي شاهدْتَ حلمٌ في هجود[١٨]

جـون می کذرد عمر چه شیرین و چه تلخ بیمانه چه بر شود چه بغداد و چه بلخ

می نوش که بعد از من و تو ماه بسی از سلخ بغره آید از غره بسلخ

أي:

إذا العمرُ يمضي فليَرق لي أو يسؤ و سيّان إن أهلكْ ببغدادَ أو بلخ

فقـمْ واحسُها فالشهرُ كم بعد سلخِـه إلى غُرّةٍ يمضي و منها إلى سلخ[١٩]

دریـاب کـه از روح جـدا خواهی شد در برده اسرار فنا خواهی شد

می خور که ندانی ز کجا آمده ای خوش باش ندانی بکجا خواهی شد

أي:

بادرْ فسوفَ تعودُ أدراجَ الفنى و ستترُك الجثمانَ منك الروحُ

و اشربْ و عشْ جذلاً فلسْتَ بعـالمٍ من أين جئت و أين بعدُ تروحُ[٢٠]

ای دوسـت بیـا تـا غـم فـردا نخوریم و این یکدم عمر را غنیمت شمریم

فـردا کـه از ایـن روی زمین در کذریم با هفت هزار سالکان هم سفریم

أي:

هَلُـمّ حبيبـي نـترك الهَـمّ في غـدٍ و نَغْنَمْ قصيرَ العُمرِ قبل فوات

سنُرْمِـعُ عـنَ ذي الـدارِ رحلَتَنـا غداً بسبعةِ آلافٍ من السنوات[٢١]

افسوس که نامه جوانی طی شد و آن تازه بهار شادمانی دی شد

آن مرغ طرب که نام او بود شباب فریاد ندانم که کی آمد کی شد

أي:

قـد انطـوى سفـر الشبـاب و اغتدى ربيعُ أفراحي شتاءً مُجْدِبا

لَهَفي لطيرٍ كان يُدعى بالصّبا متى أنّى و أيّ وقت ذهبا[٢٢]

و غـير ذلك و بعبارة مختصـرة يمكن أن يقال أن جميع ما تحـوم حوله معـاني الخيام في شعـره تنحصر في هذا البيت الشعري:

ما فات مضى و ما لم يأت أين قم فاغتنم الفرصة بين العدمين

مـن هنا نـرى أن رباعيات الخيام تـتراوح بين الإيمان و الإلحـاد و بين الدعوة للمجـون و الدعوة للهو و بين طلب العفو من الله سبحانه و الإعلان التوبة:

نـا کـرده کناه در جهان کیست بکـو و ان کس که کنه نکرده جون زیست بکو

من بد کنم و تو بد مکافات دهی بس فرق میان من و تو جیست بکو

أي:

إلهـي قـل لي من خلا مـن خطيئة و كيـف تُرى عاش البريء من الذنب

إذا كنـتَ تجـزي الذنبَ منّي بمثله فما الفرقُ ما بيني و بينك يا ربّي[٢٣]

در سر هوس بتان جون خورم باد بر دست همیشه آب انکورم باد

کویند کسـان خـدا ترا توبه دهاد او خود ندهد من نکنم دورم باد

أي:

لا عشـتُ إلاّ بالغـواني مُغرَما و على يـدي تبرُ المُدامِ الذائبُ

قالوا سيقبلُ منك ربك توبةً لا الله قابلُها و لا أنا تائبُ[٢٤]

هـر روز بـر آنم کـه کنـم شب توبه از جام بیابی و لبالب توبه

اکنـون کـه رسید وقت کل هر غم نیست در موسم کل ز توبه یا رب توبه

أي:

كل يـوم أنوي المتـابَ إذا ما جاءني الليلُ عن كؤوس الشرابَ

فأتـاني فصـلُ الزهـور و إنّي فيـه يـا رب تائبٌ من متابي[٢٥]

لقـد كان لعمر الخيام تصور معين للحياة و الارتباطات فيها بـين الإنسان و الكون.و من هـذا التصور انبعثت كل إيقاعاته،و تلونت قيم الحياة في نفسه.

لقد تصـور الكون كتاباً مغلقاً لا ينفذ العلم البشري إلى سطـر واحد من سطوره، و غيباً مجهولاً يقف الإنسان أمـام بابـه الموصد يدقه بـلا جدوى.و في هـذا التيه لا يعلـم الإنسان من أين جـاء، و لماذا جاء؟ و لا يدري أين يذهب و لا يستشار في الذهاب:

در دایـره کـه آمـدن و رفـتن ماست آن را نه بدایت نه نهایت پیداست

کس مـی نزند دمی در این معنـی راست که این آمدن از کجا و رفتن به کجاست

معنى الرباعية:

ليسـ لـذا العـالم ابتـداء يبـدو و لا غاية و حدّ

و لم أجـد مـن يقـول حقـاً مـن أيـن جئنا و أين نغدو[٢٦]

در کارکه کوزکری رفتم دوش دیدم دو هزار کوزه کویا و خموش

ناکاه یکی کوزه بر آورد خروش کو کوزه کر و کوزه خر و کوزه فروش

معنى الرباعية:

شاهـدت ألفي جـرة في معمـلٍ تدعـو و لم تفتح بنطق فاها

فإذا بإحداها تنادي أين من صنع الجرار و باعها و شراها[٢٧]

جون آمدنم بمن نبد روز نخست و این رفتن بیمراد غزمیست درست

برخیـز و میان ببند ای ساقی جست که اندوه جهان بمی فرو خواهم شست

معنى الرباعية:

إن كنتُ قبلُ أتيتُ الدنيا بدون اختيار و سوف أرحلُ حتماً عنها غداً باضطرارٍ

فقـمْ نديمـي سريعـاً و اعقدْ نطـاق الإزار فسوفَ أغسلُ همّ الدنيا بصافي العُقار[٢٨]

من هذا التصـور الخاص للعلاقة بين الإنسان و الكون استمـد الخيام كل تصوراته لقيـم الحياة التي تأثر بها فنه.فهـذه الحياة المجهولـة المصـدر و المصير،في هذا العماء الذي يعيش فيهـا الإنسان لا تستحق أن يحفلها و يعنـي نفسـه بهـا.و إذن فلا ضرورة للوعـي الذي لا يـؤدي إلى شيء..و لـو اختلف تصور الخيـام للحياة و الارتباطـات فيهـا بـين الإنسـان و الكـون، لاختلفت قيمهـا في حسه،و اختلف اتجاهه الفنـي بكل تأكيد،لو تصـور مثـلاً أنه قطـرة في نهـر الحيـاة،و لكنها قطرة تحـس بأهداف النهر،من المضـي و التدفق و الإرواء و الإحياء،لـكان للحياة في نظـره قيم أخرى.و لو تصور أنه نفخة من روح الله تلبست بجسد،ليكون خليفة الله في هـذه الأرض،ينشـئ فيهـا و يبدع لـكان للحياة في نظـره قيم أخرى..كذلك لو تصـور أنه فرد في طبقة،و أن هنـاك صراعـاً بين طبقتـه و الطبقـات الأخرى على نحو ما يتصور بعض الناس لاختلف الأمر...

عن موقع الحوار المتمدن

عمر الخيام و رباعياته

ابراهيم العريس

برغم غرابة حياة عمر الخيام وتميّزه في زمانه كعالم وشاعر ومفكّر عرف بقوة كيف يشاكس على ذلك الزمن كما على مجتمعه، يلفت النظر ان عدد الأعمال الأدبية، ولا سيما الفنية، التي تناولته وتناولت حياته، يبدو ضئيلاً للغاية بحيث إن الأمر احتاج الى انتظار رواية الكاتب اللبناني باللغة الفرنسية أمين معلوف، «سمرقند"قبل ان يكون الخيام شخصية أساسية في عمل ادبي كبير يكتبه قلم شرقي. ومع هذا، فإن الخيام كما نعرف لا يتربع وحده على عرش «بطولة» تلك الرواية الرائعة والتي اتت اواسط سنوات الثمانين من القرن العشرين لتجدّد في فن كتابة الرواية التاريخية، بل هو في «سمرقند"واحد من ثلاث شخصيات تاريخية - الى جانب الحسن الصباح ونظام الملك - عرف معلوف كيف يجمعها «عشوائياً» لخدمة عمله الأدبي/التاريخي من دون ان ينصبّ الاهتمام على سيرة اي منها بالمعنى الحصري للكلمة. وبالتالي يمكن القول ان القراء، والعرب منهم في شكل خاص يحق لهم ان يقولوا انهم دائماً في انتظار نص كبير يكتب عن الخيام الذي لا بد من القول انهم يعرفونه من طريق الغناء أكثر مما يعرفونه من اي طريق آخر.

> فبالنسبة الى الغالبية العظمى من محبي الفنون العرب، يرتبط اسم عمر الخيام أول ما يرتبط باسم سيدة الغناء العربي كوكب الشرق أم كلثوم، إذ كانت هي التي خلّدت بعض شعره مترجماً الى العربية في واحدة من أجمل أغانيها: تلك الرباعيات الساحرة التي اختارها وترجمها عن الفارسية الشاعر أحمد رامي الذي على رغم انه كتب في حياته أشعاراً كثيرة بالعامية المصرية والفصحى غنت أم كلثوم بعض أجملها يبقى اشتغاله على «الرباعيات" التي نقلها شعراً الى العربية، من أجمل إنجازات حياته، التي قد يكون من المفيد ان نفتح هلالين هنا لنذكر ان كاتباً لبنانياً مميّزاً آخر في اللغة الفرنسية تناولها مركّزاً على حكاية وله رامي بأم كلثوم في رواية عنوانها «أم»، غير ان هذه حكاية أخرى طبعاً.

> فحكايتنا هنا هي حكاية عمر الخيام و «الرباعيات" ومن ثم لا بد من ان نشير هنا مباشرة الى ان عمر الخيام كان أكثر بكثير من مجرد شاعر أنشدت كوكب الشرق رباعياته. كان شاعراً، بالطبع، لكنه كان عالماً وطبيباً وفلكياً وفيلسوفاً، من نوع نادر، من نوع قد لا تكشف عنه رباعياته، حتى لو قرئت كلها بإمعان، ولكن تكشف عنه حياته. ومع هذا تظل «الرباعيات" عمله الشعري الأساس، ذلك العمل الذي عرّف الناس به، شرقاً وغرباً، وأطلق موجة عارمة من حب الحياة والتغني بالوجود والدعوة الى النهل من الملذات طالما ان ذلك ممكن، ولا يتعارض مع حب الإنسان لخالقه. وهو ما يقوله الشاعر نفسه في واحد من أجمل الأبيات التي اختارتها أم كلثوم من الرباعية، حيث بعد كل شيء يذكر عمر الخيام أنه مهما فعل واقترف في حياته، فإن عزاءه أنه أبداً لم يشرك مع وحدة الله أحداً. وجاء ذلك في سياق طلب عمر المغفرة من خالقه على هنّات يمكن ان يكون اقترفها، حيث قال ما معناه... «ويشفع لي انني قد عشت لا أشرك في وحدتك».

> كتب غيث الدين أبو الفتح عمر بن ابراهيم الخيام – وهذا هو الإسم الكامل للشاعر –، «الرباعيات»، بلغته الأم الفارسية، خلال فترات متقطعة من حياته. ولا سيما خلال مرحلة تنقل فيها بين بخارى وسمرقند وبلخ، حيث كان يمارس التعليم ويخوض التجارب العلمية، ثم يخلد الى نفسه آخر الليل مدوّناً، – في ذلك النوع من الشعر الذي لم يكن معروفاً بالنسبة الى اوزان الشعر العربي السائدة في ذلك الحين –، تجاربه وحبه للحياة ونهمه الى ان يعيشها طالما انها حياة قصيرة. ومن المعروف ان عمر الخيام كان تلميذاً للفيلسوف ابن سينا وقد تأثر به كثيراً، ولا سيما بأشعار مماثلة كان ابن سينا قد كتبها وهو يتأمل الوجود والحياة. غير ان المؤكد هو تفوق التلميذ على استاذه، في الشعر على الأقل. أما في الفلسفة والعلم، فإنه اتبع منهجه الاشراقي. في شعره، يدعو الخيام الى السهر والشراب والفرح، في نظرة لا شك في انها صنعت جزءاً كبيراً من النزعة «الهيدونية» (نظرة طلب الملذة) التي سادت في الغرب بعد ان ترجم بعض الرباعيات للمرة الأولى، الى الالمانية في فيينا عام ١٨١٨ من جانب جوزف فون هامربورغشتال. غير ان الترجمة الأهم والأكثر انتشاراً كانت تلك التي قام بها، الى الانكليزية ادوار فيتزجيرالد، الذي نقل ٧٥ رباعية من أصل رباعيات الخيام التي يصل عددها، وفق بعض الروايات الى أكثر من ٥٠٠ رباعية. ومنذ ذلك الحين تكونت عالمية عمر الخيام في الغرب، الى درجة ان كثراً راحوا يسمّون ابناءهم «عمر» تيمناً باسمه، علماً أن ترجمة احمد رامي الى بعض «أهدأ» تلك الرباعيات هي التي عرّفت العرب إلى هذا الشاعر/ الفيلسوف الذي كانت نخبة منهم قد عرفته خصوصاً كعالم فلك وباحث في العلم اشتهرت دراسة له في الجبر وضعها في العربية.

> مع مرور الزمن، تحول عمر الخيام الى اسطورة. وقد حدث له، كما يحدث لكل اسطورة، ان أضيف وحذف من رباعياته الأصلية وإليها الكثير، بحيث ان من الصعب الآن تحديد أية رباعيات نظمها بنفسه وأيها أضيف من طريق تلامذة له، أو من عمل رواة عاشوا بعد زمنه بزمن. والحال أن اقدم مجموعة تضم الرباعيات، لا تورد سوى ٢٠٦ رباعيات، بينما هناك طبعة تعود الى العام ١٤٦١ تحتوي على ١٥٨ رباعية... وفي المقابل، ثمة طبعات تضم ما يصل الى ٥٠٠ رباعية. ولعل السبب الأساس في هذا يكمن في ان أشعار عمر الخيام قد منعت طويلاً من التداول، فكان أن راحت تُنسخ وتُوزّع سراً، ما أضفى هالة من الغموض عليها ومكن الناسخين من ان يضيفوا اليها ما شاء لهم الهوى. ولكن مهما كان من شأن الاضافات، من المؤكد ان روحها تبقى هي نفسها. ومن المؤكد أن مطربتنا العربية الكبيرة، وشاعرها أحمد رامي، حين جرؤا على تحويل بعض الرباعيات الى واحدة من اجمل الاغنيات العربية راعيا الكثير من الظروف ولم يقدما سوى ما هو مقبول، بل يعبّر حتى عن توبة الرجل، وهو الجزء الأسهل في رباعياته، بالطبع.

> ولد عمر الخيام عام ١٠٤٨ على الأرجح في نيسابور التي سيموت فيها في عام ١١٢٢. واسمه الخيام يعود كما يبدو الى مهنة ابيه الذي كان يصنع الخيام ويتاجر بها. أما هو، فإنه تلقى منذ نعومة أظفاره علوماً ودروساً في الفلسفة في نيسابور نفسها ثم في بلخ، في الفارسية والعربية، وبدأ يبرز كواحد من ابرز تلامذة ابن سينا، وصار معروفاً وهو في العشرين من عمره بتجديداته العلمية، ما جعل السلطان السلجوقي ملك شاه يعهد اليه بإنشاء مرصد غايته ضبط الوقت والروزنامه في شكل نهائي ففعل. ثم بنى مرصداً ثانياً ضخماً في مدينة اصفهان بالاشتراك مع عدد من العلماء الآخرين. وفي عام ١٠٩٢ وكان بلغ الخمسين من عمره وشعر بأن الوقت حان لسلوك درب التوبة، قام عمر الخيام بالحج الى مكة المكرمة، ومنها عاد الى مسقط رأسه نيسابور حيث انصرف الى تدريس العلوم والفلسفة. وقد عرف عنه خلال تلك الفترة المتأخرة من حياته ميله الى التنجيم، فكان يروى عنه توقعه أحداثاً كانت سرعان ما تقع بالفعل. خلال تلك السنوات كتب عمر الخيام الكثير من الدراسات في الطب والفلك والفلسفة (ولا سيما نصوص يشرح فيها فلسفة ابن سينا)، غير ان قليلاً من تلك الكتابات بقي طويلاً من بعده، ومن اهم ما بقي – الى رباعياته – نص يفسر فيه كتابات أقليدس. والحال ان كتابات عمر الخيام كلها، سواء أكانت شعرية أم علمية، مطبوعة بهاجسين: هاجس الشك والبحث المضني عن يقين، وهاجس التوبة وطلب المغفرة. وهذان الهاجسان صنعا، في الحقيقة، شهرته كلها.

عن صحيفة الحياة اللندنية

رباعيات الخيام.. فلسفة عشق وتأملات حياة

فريد نعمة

سارت قافلة من محبي شعر عمر الخيام وما أكثرهم لتزور ضريحه في نيسابور. وقد حملت باقتين من الورود البيضاء، باقة من طرفة أبي العبد، تهتف ورودها:
«ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى/ وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي»، وباقة من أبي تمام، تردد ورودها: «غير مجد في ملتي واعتقادي/ نوح باك ولا ترنم شادي»، وما كادت القافلة تقطع الميل الأول، حتى توقفت على نداء إيليا أبي ماضي «جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت/ ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت»..
ومن العجب أننا نستطيع أن نختزل رباعيات الخيام في هذه الباقات الثلاث، لأنها تأملات تخطر على بال الإنسان حيثما حلّ وأنّى وجد، حول الحياة والموت والعدم، تقدم تساؤلات مضنية تحركه طالما يحمل في نفسه هاجس الشك والتوق إلى اليقين، كما أنها فلسفة عشق في وجدانياتها الشعرية.

تساؤلات

وأول هذه التساؤلات يدور حول علة الوجود والغاية من مجيء الإنسان إلى الدنيا: «لبست ثوب العيش لم أستشر/ وحرت فيه بين شتى الفكر».
فالحياة قصيرة والإنسان يجري في عروقه ماء الفناء وفي روحه لهيب الشقاء: «سرت بجسمي الغض ماء الفناء/ وسار في روحي لهيب الشقاء»، فما الذي ينقذ الإنسان من قهر الزمن وفاجعة الموت؟
لاشيء غير الحاضر وكأس وأنغام ووجه صبيح»، فالماضي ميت والمستقبل في ظهر الغيب: «أين النديم السمح أين الصبوح/ فقد أمضى الهم قلبي الجريح" وكذلك «لا تشغل البال بماضي الزمان/ ولا بأت العيش قبل الآوان». إذن أين المفر وكل تلك الملذات سبب العذاب والألم؟ لا شيء غير الزهد والإمساك عن الشهوات المكدرة لصفاء الروح: «زخارف الدنيا أساس الألم/ وطالب الدنيا نديم الندم».

متناقضات ثرية

وهكذا تتوالى الرباعيات كأنها حوار أو صراع بالحجة والمنطق بين ثنائيات مُتعددة ومُتقابلات في بحث النفس البشرية عن الكمال، بين نقيضين، البطل والخصم، المؤمن والملحد، الزاهد والوجودي، والأبيقوري والأفلاطوني. رباعية تضعنا في المسجد ورباعية تضعنا في الحانة، تارة تدعونا الى العبادة وتارة الى الطرب، طورا تشدنا الى الملذات وطورا تشدنا بالعفة، مرة تغوينا بالعشق الجسدي ومرة تسمو الى الحب الإلهي. وبين هذا وذاك، نسمع نغمات كئيبة ومتشائمة ترثي وتندب الذات البشرية:
«الدهر لا يعطي الذي نأمل/ وفي سبيل اليأس ما نعمل»، أو نسمع «موالاً» يرقص مع فتاة الحانة وكأس الخمر: «أولى بهذا القلب أن يخفقا/ وفي ضرام العشق أن يحرقا»، وتستمر الرباعيات على هذا المنوال الى أن يتلاشى أحدهما ويندمج في الآخر، عندئذ يصل الخيام الى اليقين ويتكسر عقله وشكوكه المتلاطمة على شاطىء الإيمان.
ونسمعه يقول بصوت أم كلثوم وترجمة أحمد رامي: «يا من يحار الفهم في قدرتك/ وتطلب النفس حمى طاعتك/ أسكرني الإثم ولكنني/ صحوت بالآمال في رحمتك/ إن لم أكن أخلصت في طاعتك/ فإنني أطمع في رحمتك».
الرباعيات والمجتمع
وإن عشقت روح الخيام الجمال عشق الفراشة للنور، وانتشت بالصهباء لتتحرر وتدرك كنه الأمور، فإنها لم تستطع إغفال المعايب ونقائص عصرها وخاصة الرياء والتمسك بالقشور وإهمال الجوهر: «نلبس بين الناس ثوب الرياء/ ونحن في قبضة كف القضاء»، ودعا الى الحسنة وصفاء القلوب ومسامحة الأصحاب والأعداء: «أحسن الى الأعداء والأصدقاء/ فإنما أنس القلوب الصفاء».

أدب الرباعيات

نتج عن تعدد الرؤى في «رباعيات الخيام" أن تمدد الأساطير حولها، وظهر ما يُسمى بـ«أدب الرباعيات" في معظم لغات العالم، كما ظهر ما يُسمى بـ«جمهور الخيام" وشعار «على مبدأ الخيام»، فأبدع الفنانون في رسم تلك الرباعيات وتلحينها وتغنّى المطربون والمطربات بها واقتبسها رجال السينما والتلفزيون.
رموز
أثنى المتصوفون الذين جاؤوا بعد الخيام على الرباعيات ووجدوها تعج بالمعاني والرموز الصوفية، فتناقلوها واستشهدوا بها. وإذا بالخيام الذي يحث على النهل من مباهج الحياة وملذاتها، يحث على التعبد والقناعة والزهد. وليست تلك المباهج برؤيتهم غير رموز: الروض يرمز إلى الدنيا، وخد الحسناء الى الحقيقة، والخمرة إلى ماء الحياة، وأنغام العود الى التناغم الأزلي في الوجود، والجداول والأنهار ترمز الى الجنة.
ويرى الكثير من النقاد أن ترجمة أحمد رامي لرباعيات الخيام فاقت النص الأصلي جمالاً، لكن لايخلو هذا القول من إجحاف لجماليات الرباعيات وسلاسة أفكارها الأم.

نادي الخيام

الشاعر الإنجليزي ادوارد فيتزجيرالد، أحد الذين تدين له الرباعيات بالشهرة العالمية ويدين لها بالشهرة أيضاً، فهو أول من ترجمها عن الفارسية الى الانكليزية ومن الانكليزية تُرجمت الى بقية لغات العالم. وقد أسس نادياً في لندن سماه «نادي الخيام»، ثم قام مع عدد من محبي شعره بزيارة ضريحه في نيسابور، وأحضر معه وردة من حول الضريح وزرعها في النادي في لندن.

نقد

تعرضت الرباعيات الى النقد الحاد واتهم بعض المفكرين ورجال الدين عمر الخيام بالزندقة والمجون وقالوا: «إن رباعياته تحمل دعوة للكفر والفساد وتبني مبدأ اللذة في أحط مظاهره». لكن غيرهم قالوا: «لم تُسجل في الكتب التاريخية الموثوقة أي رباعية من تلك الرباعيات الخليعة المستنكرة، وإنما ورد عدد من الرباعيات كلها تدل على عبقرية الخيام وإيمانه وتقاه وحسن سلوكه».

٢٠٠٩

الكاتب والأديب محمد صالح القرق قدم ترجمة عربية لرباعيات الخيام، واحتفى بيت الشعر في دبي في أمسية خيامية بامتياز بهذه الترجمة، على هامش مهرجان دبي الدولي للشعر ٢٠٠٩، ونوعت السهرة احتفاءها بالرباعيات في أكثر من جانب، إذ قدمت المطربة السورية سهير شقير بمصاحبة فرقة موسيقية من حلب «الرباعيات" التي غنتها أم كلثوم، فيما كان الحضور على موعد أيضاً مع التشكيل والمقتنيات النادرة ذات الصلة بالخيام.

٢٠٦

رباعيات الخيام مُنعت من التداول في عصرها، فحافظ عليها تلاميذ الخيام ونسخوها ووزعوها سرا، ثم أضافوا إليها ما أضافوا. ومثلهم فعل الشعراء والمفكرين المؤيدين للفلسفة الوجودية والأبيقورية.
يضاف الى ذلك أن المترجمين لها شعرا أم نثرا، تفاعلوا معها وأضافوا اليها. وقد أدى هذا الى تدوال أكثر من ألف رباعية باسمه، علما أن أقدم مجموعة تحتوي على ٢٠٦ رباعيات وهناك ١٥٨ رباعية في النسخة المحفوظة في مكتبة بودلين في أوكسفورد. وفي هذا الخصوص، أثبت الباحث الروسي شكوفسكي أن اثنين وثمانين منها واردة في دواوين غيره من الشعراء وهم: فريد الدين العطار وحافظ وجلال الدين الرومي وابن سينا والفردوسي والأنوري وعبدالله الأنصاري.

رباعيـات الخيـام.. لا رباعيـات أخـرى

فائز الحداد

الرباعيات اصطلاحا وعلى مر التاريخ، اشتهرت شعريا باسم شاعر أوحد كبير، هو في تقديري سيد الشعراء وأمير أمرائهم.. "عمر إبراهيم الخيّام"، وباسمه اقترنت بيانا وحكمة وستظل كذلك حتى تصيح الساعة، وكل ما كتب ويكتب من تجارب شعرية، أجزم بأنها لن تلتحق في ميدان الأهمية ولا حتى على سبيل المقارنة بها، رغم أن التجريب وارد على صعيد المحايثة أو المضارعة.. وهو حق لأي شاعر ولكن.. على شرط أن يبلغ ما بلغه المقارن به في الهدف كشعر وحقيقة.

فهل ما ينشر الآن وما نقرأه.. هو بحق رباعيات شعرية ترقى إلى ما كتبه للخيام العظيم.. هنا السؤال جدوى الحاسم؟

والجواب: دون أدنى مواربة أو تزلف ودون أدنى عناء ولا مماحكة.. لا.

السبب في ما أرى ليس في الشعر إنما في الشاعر، ذلك الذي طرق الرباعيات سبيلا مقترنا باسم شاعر كبير كالخيام، ولم يفلح في بلوغ حواشيها حتى في أدنى المعاني أو السمات.. والسبب الآخر هي رباعيات الخيام لا رباعيات زيد أو عمرو.

فهل هذا يعني أن على الشاعر المجرب أن يكون له غير الذي كان في التعريفة والتعريف.. أي أن ينتهج الشاعر المجرّب غير الرباعيات ويجد سبيلا لشعره آخر في التسمية كالثلاثيات أو الخماسيات مثلا؟

المسألة أحسبها كقارئ.. تتعلق بمقدار الشعرية المبثوثة في التكوين الشعري المنشأ، وبخلافه يكون الشاعر قد جرب التعكز على الخيام شخصا واسما ومنجزا وتاريخا، وهذا هو جزء من التجني الشعري السلبي المتعمد.. بمعنى آخر: هو السعي إلى تهميش تجربة الخيام الكبيرة من خلال الرباعيات "البديلة" المفترضة.. وإلا بماذا نفسرها أو نحسبها تأويلا.!؟

فإذا كان بمقدور شاعر أن يأتي بمستوى ما كتبه الخيام في الرباعيات عنوانا و شعرا.. لماذا يسلك ذات المنحى ليعرف شعره بتعريف ليس له كرباعيات.. (وليس له ما به ولو ضمنا)؟.

إن الخيام كان مختلفا.. أختلف في كل ما جاء به في رباعياته المتفردة.. لذلك أهتم بها وبه النفاد والباحثون وشاع صيته شعريا وتاريخا.. وفي مقدمة الذين اهتموا به شعرا وترجمة هو الشاعر الانكليزي ادوارد فيتز جيرال، ومثله أيضا ما قيل ويقال عن المتنبي الكبير وأبي تمام وأبي العلاء والجواهري وشكشبير ورامبو وغيرهم تمثيلا لا حصرا.

وتبقى الترجمات علة العلل بين ما هو شعري ونثري فيما نقل عن هذه الرباعيات الخالدة.

أما عن هذه الترجمات يقول الناقد العراقي د علي عباس علوان (أن أكثر الترجمات شاعرية هي ترجمة الشاعر الكبير أحمد رامي، لكنها قصرت الدقة في نقل المعنى ألخيامي، لكن شاعرية الصافي ألنجفي كانت أقل من شاعرية رامي من حيث العذوبة والرقة وجماليات القصيدة العربية. وتبقى ترجمة أحمد حامد الصراف أدق وأشمل وأوفى من كل الترجمات التي قدمت باللغة العربية، لكنها نثرية وتحمل عيوب النثر وقصر الموسيقى)

وفي هذا الصدد يجب أن نذكر ترجمات الرباعيات ومن نظمها شعرا كالذي فعله الزهاوي عام١٩٢٨، ولو سبقه في ذلك الشاعر أحمد رامي عام ١٩٢٤، غير أن أول ترجمة للرباعيات كانت عام ١٩١٢ من قبل الشاعر اللبناني وديع البستاني ثم تتالت ترجمات كثيرة.. منها ترجمة محمد السباعي ومحمد الهاشمي وعبد الحق فاضل واحمد زكي وتوفيق مفرج عن اللغة الإنكليزية وأخرها ترجمة الشاعر المجيد محمد محسن ألسيفي" والتي أعتمد فيها على الترجمة النثرية للأستاذ أحمد حامد الصراف في كتابه "الخيام" إذ ترجمها ترجمه نصية بحته ارتكزت على نص الرباعية الفارسية المكتوبة على وفق بحر الدوبيت وهذا يجعل نص الترجمة صعبا جدا، ولكن الشاعر ألسيفي استطاع بمقدرته الشعرية أن ينشئ (١٠١) من الرباعيات في كتابه الأثير "رباعيات الخيام" على غرار النص النثري دون خلل في المعنى أو الأسلوب.) حسب ما يرى.. أ د علي عباس علوان.

أما عن موضوع التجريب شعرا كرباعيات، والذي طرقه بعض الشعراء فهذا ما سنأتي إليه تفصيلا في التقييم والبحث في كتابة قادمة كأهمية وحقيقة شعر مقارنة في ما تركه لنا عمر الخيام في رباعياته الخالدة.. والله من وراء القصد.

مائـة وخمسون عامـا على ترجمـة فيتزجيرالد لرباعيات الخيام

بقلم: رنا جوهر

"أفق خفيف الظل"هذا السَّحَر
نادي دع النوم وناج الوتر
فما أطالَ النوم عمراً ولا
قصّر في الأعمار طول السهر"

هي أبيات لاتنسى لرائعة من روائع الأدب الفارسي "رباعيات عمر الخيام" التي ترجمها أحمد رامي وغنت بعضها. ومنها هذه الرباعية. أم كلثوم، والتي يمر هذا العام مائة وخمسون عاما على إكتشاف الشاعر الإنكليزي ادوارد فيتزجيرالد لها وترجمتها الي اللغة الإنكليزية، وكانت ترجمته من الروعة بحيث أصبحت واحدة من أهم القصائد في الأدب العالمي، وتعد ترجمة فيتزجيرالد للرباعيات معلما أدبيا في تاريخ الشعر الإنجليزي حيث شكلت الطبعات المتوالية للترجمة من الستينات من القرن التاسع عشر إنقلابا واضحا في الثقافة الأوروبية والعالمية، وتجاوزت الحياة الثقافية الي الحياة الإجتماعية فمثلا نجد الكثير من أبياتها تحول الي تعبيرات شائعة في الإنجليزية مثل ماتفتحت زهرة إلا ذبلت ، وقد إنتقلت الرباعيات من الانجليزية إلي اللغات الأخرى بشكل لم يسبق له مثيل، فترجمت منها الي الفرنسية والألمانية والروسية والإيطالية وغيرها من اللغات حتي أنها ترجمت عن الانجليزية الي

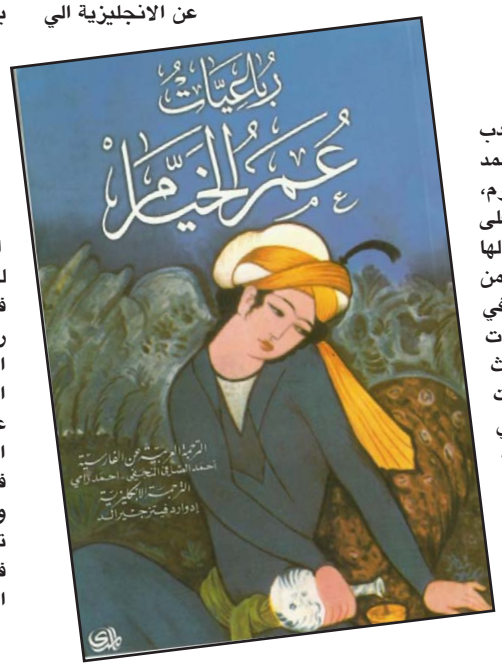

الفارسية والعربية، لقد نجحت رباعيات الخيام في أن تتغلغل في الثقافة الانجليزية والعالمية بفعل جاذبيتها وعمق معانيها التي خاطبت النفس الإنسانية الحائرة بل تساؤلاتها وحزنها وفرحها وأيضا روعة ترجمة فيتزجيرالد، فهي تبث دعوة الي اكتشاف جماليات الحياة والحب وتحرير العقل والحواس وتتعرض الي هموم الإنسان ومخاوفه وأوهامه، مع التأمل في حال الوجود وأسئلة الحياة والموت.

وقد تصادف هذا العام كذلك مع حلول الذكرى المائتين لميلاد ادوارد فيتزجيرالد ، والذي كان لترجمته للرباعيات أثر كبير على حركة التجديد في الشعر الأوروبي عامة والإنجليزي خاصة وقد رفعت اسم مترجمها الي الصف الأول بين أعلام الأدب الإنجليزي واعتبره النقاد من أهم الشعراء الانجليز في القرن التاسع عشر لترجمته رباعيات عمر الخيام بلغة شعرية عالية توازي اللغة الشعرية الفخمة في الشعر الكلاسيكي الإنجليزي في العصر الفيكتوري وماقبله.

وقد اعترف فيتزجيرالد ان ترجمته للرباعيات لم تتسم بالأمانة في النقل، فقد أطلق لنفسه الحرية في اعادة تجميع مقاطع القصيدة وترتيب أبيات الشعر، فقام بدمج الرباعيات والإضافة عليها وإيجاد علاقات بين الرباعيات وبعضها ليُخرج عملا متكاملا مترابطا، لقد رصد فيتزجيرالد المضمون ولمس روح الرباعيات لكنه وضعها في قالب الشعر الانجليزي الكلاسيكي ويقال أن فيتزجيرالد كان ينظم القصيدة في حديقة على الطراز الفارسي، لعله أراد أن يستحضر ماكان يشعر به عمر الخيام وهو يتغني برباعياته.

اكتشف فيتزجيرالد رباعيات عمر الخيام في أثناء دراسته للشرقيات فعشقها وعكف على ترجمتها ونشر مجموعة منها سنة ١٨٥٩، إلا أن النجاح لم يكن حليفا لهذه الطبعة الأولي وظلت نسختها كاسدة حتى وقعت في يد الشاعرين الانجليزين دانتي جابريل روسيتي (١٨٢٦ ـ ١٨٨٢) ومن بعده سوينبيرن (١٨٣٧ ـ ١٩٠٩) فوقعا في حب القصيدة وكان لهما أكبر الأثر في اهتمام المثقفين والقراء بالرباعيات ، كان ذلك سنة ١٨٦٠.

توالت بعد ذلك الطبعات المنقحة للرباعيات ، فظهرت الطبعة الثانية لفيتزجيرالد سنة ١٨٦٨ مع مقدمة موسعة عن الخيام وحياته وعصره.

وبحلول عام ١٩١٩ كانت قد صدرت ٤٤٧ طبعة من ترجمة فيتزجيرالد للرباعيات.

عن صحيفة الأهرام

عمر الخيّام في لغات أخرى

جلال زنكابادي

قلّما حظي شاعر آخر في العالم كالخيّام بترجمة أشعاره إلى اللغات الأخرى (لاسيّما الحيّة) حيث ترجمت رباعيّاته إلى قرابة مائة لغة ولهجة حتى الإسبرانتو و طبعها بخط بريل للعميان! و يتناول هذا المبحث لمحات عن ترجمات رباعيّات الخيّام في بضع لغات شرقيّة وغربيّة، وكذلك إشارات خاطفة إلى ترجمات في لغات أخرى إستكمالاً لما سلف من المباحث المستقلة عن ترجماتها في اللغات: الإنكليزيّة، الفرنسيّة، الألمانيّة، الإسبانيّة، البرتغالية، العربيّة، التركيّة، الكرديّة، الروسيّة، الصينيّة، اليابانيّة ولغات شبه القارة الهنديّة.

في البشتو:

هنالك (٣٨ لغة ولهجة) في أفغانستان التي يتجاوز عدد نفوسها (١٦ مليون نسمة) تتصدّرها نسبة عدد الناطقين باللغات الإيرانية (٨٦٪) ومنهم الناطقون بلغة البشتو بنسبة (٥٥٪) والناطقون باللغة الدرية (الفارسيّة) بنسبة (٣٠٪) ورغم كون البشتو هي اللغة الأولى في أفغانستان بصفتها لغة البشتون (القوميّة الأكبر) تنافسها الدرية (الفارسيّة) في المضمار الثقافي؛ وهنا تكمن علّة ضآلة حركة الترجمة إلى البشتوية عن الفارسيّة، فحتى رباعيّات الخيّام لم تترجم غير مرّتين إلى اللغة البشتوية. وكانت المرّة الأخيرة في مدينة بيشاور بباكستان، حيث صدرت عن القنصلية الثقافية لجمهورية ايران الإسلامية في سنة ٢٠٠٥ ترجمة جديدة إلى لغة البشتو لرباعيات الخيام للشاعر والكاتب والباحث نجم الرحمن مواج، الذي ترجم أيضاً (رباعيات الإمام الخميني) إلى البشتوية. وقد أشار المترجم مواج في المقدمة إلى ان هذا المشروع ظل يلازمه منذ ثلاثين عاماً؛ حتى تمكن رغم الصعاب من ترجمة (١٩٨ رباعية مختارة) وقد تضمّنت الصفحات الخمسين الأولى من الكتاب الذي يقع في(٢٥٠ صفحة من القطع الجيبي) بضع مقالات ودراسات تناولت السيرة الذاتية والثقافية للخيام وفلسفته و ترجمات رباعياتها إلى أكثر من أربعين لغة، وهي بقلم الأساتذة: محمد آصف صميم، عبدالحق دانشمل، عبدالخالق رشيد، أختر مهدي و نجم الرحمن مواج...أمّا الصفحات الباقية فقد ضمّت كل واحدة متن رباعية في أعلاها، تليها رسمة ميناتورية، ثم الترجمة البشتوية. ولقد قارن محمد آصف في مساهمته(عمر الخيّام، رباعياته وترجماتها البشتوية) بين بضعة نماذج من هذه الترجمة مع نظيراتها المترجمة سابقاً من قبل صنوبر حسين كلكاجي (١٨٩٧-١٩٦٣) بالإحتكام إلى متونها (الخيّامية) مفضلاً الترجمة الجديدة على سابقتها من حيث شعريّتها المضاهية للأصل الفارسي. وعليه فإن هذه الترجمة- التي صدرت طبعتها الثانية بألف نسخة- تعد بروعتها إضافة مهمة مؤثرة للأدب البشتوي المعاصر.

وطبعاً لرباعيّات الخيّام تأثيرها الملحوظ منذ أكثر من قرن في أشعار الكثيرين من الشعراء الأفغان بمختلف لغاتهم، و لنا أقرب مثال في مجموعة (ها) للشاعر رفيع جنيد، والتي صدرت في ٢٠٠٦

في التركيّة الآذريّة:

(التركيّة الآذريّة) هي إحدى لغات العائلة التركيّة الست والستين في العالم، وهي اللغة الرئيسة في آذربايجان إيران وجمهوريّة آذربايجان(الإتحاد السوفياتي البائد) وصلتها باللغة الفارسيّة وأدبها قديمة تمتدّ لبضعة قرون، و لابأس بحركة الترجمة بينهما، رغم أن أكثر الترك الآذريين يجيدون الفارسيّة. وقد تصدّى لترجمة رباعيّات الخيّام إلى التركيّة الآذريّة بضعة مترجمين قديرين، منهم: مدرس أول شيوا، جبار باغجبان، حبيب ساهر و مير صالح حسيني...وتعدّ ترجمة الباحث والشاعر حسيني لـ (٢٠٠ رباعيّة) أجود الترجمات، حيث استثمر فيها الأمثال

ولغة الحياة اليوميّة السيّالة، بالإضافة إلى الدقة والأمانة، ومنها الرباعية الآتية:

اسرار ازل نه تو دانی و نه من
وین حرف معمّا نه تو خوانی و نه من
هست از بس برده کَفتوکوی من و تو
جون برده برافتد نه تو مانی و نه من

- خلقت كلفين نه سن آجارسان، نه ده من
بو تابماجانى نه سن تابارسان، نه ده من
بيز برده نين آرخاسين دا صحبته شيريك
برده دوشه رك، نه سن قالارسان نه ده من

- لا أنت تعرف أسرار الأزل و لا أنا
وهذا الحرف المعمّى لا أنت تقرؤه ولا أنا
إنما حوارنا من وراء الحجاب
و لمّا يسقط الحجاب لاتبقى أنت و لا أنا

وممّا زاد الإقبال على هذه الترجمة هو تزيين الفنان قربانعلي أجلي صفحاتها بلوحاته، وكذلك تلحينها من قبل الموسيقار علي سليمي ووضع الموسيقى لها ؛ فحظيت بالإستحسان والإنتشار، وقد أشاد البروفيسور راميز قلي أوف بمستواها الراقي. والمعروف أن الأستاذ الدكتور حسيني يحيط ببضع لغات من شجرة عائلة اللغات التركيّة وبضع لغات عالميّة حيّة. وهنا تجدر الإشارة إلى أن هنالك العديد من ترجمات رباعيّات الخيّام في عشر لغات رئيسة من العائلة التركيّة: التركيّة الأستانبوليّة، الكازاخية، الأوزبكية، الأويغورية، القيرغيزية والتركمنية... ومن الترجمات الجيّدة لرباعيّات الخيّام إلى اللغة الأوزبكيّة تجدر الإشارة إلى ترجمة شاه محمّدوف الذي ترجم أيضاً شاه نامه الفردوسي و غزليّات حافظ الشيرازي. وكذلك الترجمة التركمنية لسيدزاده في تركمنستان.

في العبريّة:

أوّل من ترجم رباعيّات الخيّام عن الفارسيّة إلى العبريّة نظماً هو الشاعر والمثقف سليم أفندي اسحق، وتلاه في ترجمتها الشاعر والأديب باللغتين العربيّة والعبريّة عزرا افندي حداد (١٦٠رباعيّة) نظماً، وتعود تينك الترجمتان إلى عشرينات القرن العشرين، وهنالك ترجمة ثالثة في ١٩٨٧ لشمعون ليفي، أمّا آخر ترجمة عبريّة فهي عن ترجمة رامي، وهي لعمانوئيل شبابو، بمساعدة الأديب د. محمود عباسي. وتقع في (٨٣ صفحة من القطع المتوسّط) مقرونة بالترجمة العربيّة لأحمد رامي. ومن المحتمل وجود ترجمات أخرى ودراسات، نجهلها بسبب الغيتو الثقافي العربي! في حين يروّج بعض المتأسلمين والقومجية العرب لـ (نظريّة المؤامرة) زاعمين أن ترجمة رباعيّات الخيّام إلى لغات العالم و العناية بآثار الخيّام العلميّة والفلسفيّة ماهي إلاّ مؤامرة يهوديّة – صهيونيّة عالميّة محبوكة ضد العروبة والإسلام والمسلمين!

في الأرمنية:

للغة الأرمنيّة وأدبها علاقة موغلة في القدم باللغة الفارسيّة وأدبها، و فيما يتعلق برباعيّات الخيّام هناك بضع ترجمات لها إلى اللغة الأرمنيّة مع العديد من الدراسات المتناولة للخيّام ورباعيّاته وأعماله العلميّة والفلسفيّة، خلال القرن العشرين، أمّا آخر

ترجمة لرباعيّات الخيّام إلى الأرمنيّة فقد أنجزها الأديب والباحث الموسوعي الدكتور آزاد ماتيان(الأرمني الإيراني) وقد صدرت سنة ٢٠٠٦ في يريفان عاصمة أرمينيا، كما صدر أيضاً سيدي(قرص مدمّج) يحوي مختارات من الرباعيات المترجمة بإلقاء الفنانة المسرحية المعروفة آيدا أسطوريان. وكان ماتيان حتى إحالته على التقاعد يعمل أستاذاً في قسم اللغة الأرمنية في جامعة أصفهان لأكثر من ثلاثين سنة، وهو معروف بحضوره الثقافي المؤثر، ومن أبرز أعماله ترجمة (فغان نامه/ كتاب النحيب) للشاعر العرفاني كَريكَور ناركَاتسي (من القرون الوسطى) إلى اللغة الفارسية.

في الصربوكرواتية

الصربوكرواتيّة هي اللغة الرئيسة في يوغسلافيا (البائدة) وتعود الريادة في التعريف بالخيّام وترجمة رباعيّاته إلى صفوت بيكَ باشاكَاجيچ (١٨٧٠-١٩٣٤) دكتوراه من جامعة فيننا في الفلسفة الإسلامية واللغات الشرقية، ومنها الفارسية والعربية...وهو شاعر ومترجم غزير ونوعيّ الإنتاج، إذ ترجم إلى الصربوكرواتية أشعار: الخيام، الفردوسي، نظامي كَنجوي، حافظ و جامي...وقد صدرت ترجمته لرباعيات الخيام في سنة ١٩٢٠ (٢٢٧ رباعية) وأعيد نشرها لاحقاً في ١٩٢٨و١٩٥٤ في زغرب.

وهنالك العديد من الأبحاث والدراسات المتعلقة بالخيام، منها كتاب (الخيّاملوجية) للمستشرق فهيم بايراكتاروفيچ(١٨٨٩-١٩٧٠) والذي يتناول فيه فلسفة الخيّام. كما قام بمراجعة وتنقيح ترجمة رباعيات الخيام لصفوت بيك، باشاكا جيچ،في ١٩٥٤بالإضافة إلى ترجمة ٣٠٠رباعية خيامية.كما ألّف (فيترز جرالد و عمر خيام) بلكراد ١٩٢٧ وكتاب (الخيام عندنا) بلكراد ١٩٦٤، ولماريا جوكانوويچ(١٩٢٣-١٩٨٣)مقالة عن الخيام. ولراده بوزفيچ (تولد١٩٣٩) مقالة في الدراسات الإيرانية (نظرة إلى عمر الخيّام) ١٩٦٦ في دوريّة(الآداب) بلكراد. ولبشير جاكا (تولد١٩٣٧)دراسة عن عمر الخيّام في مجلة(اسلامسكا ميسائسو) سارايفو،السنة ١٣،ع ١٥٤، ت١/١٩٩١وللباحثة آنجليكا ميتروويچ (تولد١٩٥١) دراسة عن فهيم بايراكتاروويچ و عمر الخيام، بلكراد ١٩٩٧. ودراسة عن عمر الخيام، في مجلة(نور) بلكراد ٢٠٠٢

في الرومانية

اللغة الرومانيّة هي إحدى اللغات المنحدرة من اللغة اللاتينيّة، وقد إبتدأت منذ أوائل عشرينات القرن العشرين ترجمة رباعيّات الخيّام إلى اللغة الرومانية عن اللغتين الوسيطتين الإنكليزيّة والفرنسيّة، و أوّلها ترجمة د. الكساندرو فيتسيانو في ١٩٢٣ عن ترجمة ادوارد فيتز جرالد، ثمّ ترجمة أ. ت. ستاماتياد في ١٩٣٢، والتي أعيد نشرها في ١٩٤٥ و ١٩٤٧، ثمّ ترجمة اي. ك. سفرانو في ١٩٣٧. أمّا الترجمات الأخيرة فأبرزها ترجمتان، إحداهما في ١٩٦٩ للشاعر جورج بوبا عن الترجمة الفرنسية لـ (ف. توسن)، والثانية في ١٩٧٢ عن اللغة الفارسيّة للشاعر جورج دان بالإشتراك مع شكوفة سعيدي وهي مشفوعة بالمتون الأصليّة.

وبالطبع ظهرت منذ عقود ترجمات جزئية عديدة في المجلات، ومنها للشعراء: د. ستويجسكو، و تيوفيل سيمنسكي، ايوزبيو كاميلار، اتوشتارك، س. يونسكو – آنجل، و فاسيليه ستويكا. وكلّها ترجمات ساعية إلى تحقيق الأمانة والدقة، مع الإعتراف بروّاد ترجمتها. كما قام الباحث اللغوي اوفيد دِنسوشيانو، المعروف بدراساته المتعلّقة بإيران، قام بترجمة كتاب فرانتس توسن الخاص بالخيّام عن الفرنسية، وأضاف إليه ترجمة عشرين رباعيّة، وأشار في مقدمته إلى أن الترجمة الفرنسية حرّة أكثر ممّا ينبغي.

وطبعاً هنالك العديد من المقالات والدراسات عن الخيّام ورباعيّاته على انفراد أو مع شعراء آخرين لباحثين رومانيين أمثال: هنري برومس عن حافظ والخيام والشرق. و الشاعر اوزبيو كاميلار الذي ترجم مجموعة من رباعيات الخيام.

في الهولندية

يعود إهتمام الهولنديين بإيران وثقافتها إلى ماقبل بضعة قرون، بل وجد الباحثون في مكتباتها العديد من نسخ المخطوطات الإيرانيّة المهمّة، ومنها رسالتان علميّتان لعمر الخيّام و هما: "في شرح ماأشكل من مصادرات كتاب إقليدس) و(في البراهين على مسائل الجبر والمقابلة) ويذكر أن الرسالة الأخيرة قد إكتشفها وعرّف بها العالم الهولندي جيرارد ميرمن في سنة ١٧٤٢م.

وهنالك أكبر أرشيف للصور الفوتوغرافيّة المتعلّقة بإيران خلال الربع الأخير من القرن (١٩م) والربع الأول من القرن العشرين، أمّا مايتعلق بالخيّام فيقول الشاعر الهولندي المعروف دريك فن فيسن عن الخيّام : "لقد خلدت رباعيات الخيام في ايران و العالم أجمع. وقد ترجمت إلى الهولندية في القرن العشرين. وطبعاً كانت ترجماتها الإنكليزية متوافرة منذ القرن التاسع عشر"وفيما يلي أسماء أبرز مترجمي رباعيّات الخيّام إلى الهولنديّة ترجمات جزئيّة أو كليّة و الكتابة عنها وعن الخيّام وآثاره الأخرى: كر. فان بالين في ١٩١٠، وليم دي ميروديه (١٨٨٧- ١٩٣٩) في ١٩٣١ / فريتس بيجل في ١٩٣٧ / هـ. و.ج.م. كيولس(١٩٨٣-١٩٦٨) في ١٩٤١ / بونتيكوس في ١٩٤٤ / س.ب. بووتنس في ١٩٤٦ / يوهان فان سجاغن في ١٩٤٧ / موريس دي دونكر في ١٩٥١ / ج. هـ. ليوبولد في ١٩٥٣ / ديرك يوريتسما في ١٩٥٤ / إنّه دي يونغ في ١٩٥٥ / جون ويلاند ١٩٦٠ / ي.أ. فورين في ١٩٦٦/ لوكاش ميتسير في ١٩٧٩/ هـ. ج.س. شنايدر ١٩٨٩ / ثيو فان رالته في ١٩٩٢/ كَيرت بريمر في ١٩٩٤ / و. بلوك في ١٩٩٧ / ي.ج.و. كرابي في ١٩٩٩/ و د. ميورسنغ في٢٠٠١

وهناك العديد من الأعمال الموسيقيّة المستلهمة من رباعيّات الخيّام، بل وأعمال فنيّة تشكيليّة مثل الأعمال السيراميكيّة للفنانتين الهولنديتين ماريا آنا ديوند و يولا بوشهير، في معرضهما المشترك، الذي أقيم في تموز٢٠٠٨ حيث إزدانت قطعه(لاسيما الكيزان) برباعيات الخيام إستناداً إلى الترجمة الفيتزجيرالدية، ولاقى إقبالاً واستحساناً كبيرين.

في الجيكيّة

أوّل من عرّف الخيّام للجيك بصورة مجزية هو الدكتور (الطبيب) يوزف شتيبر الذي ترجم في سنة ١٩٢١ مجموعة من رباعيّات الخيّام إلى اللغة الجيكيّة عن الترجمة الإنكليزيّة لفيتزجيرالد. ولكنه لم يكتف بالترجمة عن لغة وسيطة ؛ إذ أصرّ على تعلّم الفارسيّة في شيخوخته، ليترجم رباعيّات الخيّام عنها مباشرة في أواخر عمره. وقد لاقت ترجمته الإقبال والإستحسان، فحظيت بثلاث طبعات. وتلاه إميل بوليسلاف لوكاج في ١٩٣١

وقد قام بضعة إيرانولوجيين بترجمات جزئيّة لرباعيّات الخيّام وهم حسب الأقدميّة:

سفاتوبلوك جخ (رباعيّتان) في سنة ١٨٧٥ برتسكي (٣ رباعيّات) / يان شتيبر (٣ رباعيّات) / يان ريبكا (٣ رباعيّات) / و شِنتولوفا (٨رباعيّات) وقد عني الإيرانولوجي يان ريبكا في (تاريخ الأدب الإيراني) بالتحقيق في سيرة الخيّام وتمكن من تحديد أرجح تاريخ لميلاده وهو (؟١٠٢١م)

في الإسبرانتو

الإسبرانتو أبرز اللغات المصطنعة، تكتب بالحروف اللاتينيّة، وتتميّز بسهولتها فهي تخلو من أيّ شذوذ لغوي، ونحوها بسيط جداً، وتخلو من أيّ شذوذ لغوي. وقد إخترعها لودفيغ أليعازر زامنهوف البولندي كمشروع لغة اتصال دوليّة في ١٨٧٠ وعكف على تطويرها حتى ١٨٨٧ إذ نشر أوّل كتاب قواعد لها. وقد كتب بها وترجم إليها النصوص الأدبيّة. وراح أنصار الإسبرانتو يزدادون تدريجيّاً في أصقاع العالم، يتحدثون ويكتبون بها ويترجم بعضهم نصوصاً من عيون الأدب العالمي إليها وحتى الكتب المقدسة، فهنالك مثلاً ترجمة للقرآن الكريم إليها. ورغم أن الإسبرانتو ليست لغة رسميّة، فهي تدرس في بعض الدول. ولقد حظيت رباعيّات الخيّام ببضع ترجمات إلى الإسبرانتو وأهمّها ترجمة الشاعر والعالم اللغوي الفرنسي هريين ومن تلك الترجمات لـ: ج. م. براون، في ١٩٠٧ لندن / بن ألماي، في ١٩١٥ لندن / كَاستون وارنغ هريين، في ١٩٣٥ باريس، وقد أعيد طبعها في ١٩٨٤ و ١٩٩٧ / م. س. بيان، في ١٩٤٩ إنكلترا، عن فيتزجيرالد / و وليام أولد، في ١٩٨٠ كَلاسكو، عن منظومة فيتزجيرالد.

و في لغات أخرى

الدانماركيّة: ألفريد.ج. أندرسن، ١٩٣٩/ ارثور كريستنسن/ ١٩٤٠ / ف. آجيه ريتر، ١٩٤٥/ فيكَكو أولسن، ١٩٤٠ / إلسا كَريس، ١٩٦٠ / كنوت جابيبسن،١٩٦١ / ت.لارسين،١٩٦٤ / أريك سفن تانكَارد، ١٩٨٠ /

والجدير ذكره أن المستشرق الشهير أرثر كريستنسن (١٨٧٥- ١٩٤٥م) قد ساهم مساهمة جدية مشهودة في مضمار تحقيق رباعيّات الخيام لفرز الأصيل عن الدخيل، في (١٩٠٤) ثمّ في ١٩٢٧ إذ اختار(١٢١رباعيّة) من (١٢١٣رباعيّة) وردت منسوبة إلى الخيام في (١٨ نسخة مخطوطة) ويدل منهجه في اختيار هذه الرباعيات على نفاذ بصيرته وحسه النقدي.

السويديّة: ستن سلندر، ١٩٣٧/ أولي تورفا، ١٩٤٨/ سفند إيرك تانكَارد، ١٩٧٨/ إيرك هيرميلين،١٩٩٣/ أكبر كَولرنغ، ١٩٩٤/ وحيدة سليمي،٢٠٠١/ الأفريكانيّة: تشارلس هيرمان بوسمان، ١٩٤٨/ أ. هـ. جونكر، ١٩٥٠/ د. ف. فان سويلين، ١٩٥٥/ اليونانيّة: أ. تشرونوبولو، ١٩٥١/ ستانلي موريسي في ١٩٧٨/ الكَاليثيّة: بلاسيودو.ر. كاسترو، ١٩٦٥/ ميكَيل كَونثاليث كَارثيس،١٩٩٢/ الكتالانية: إنريكيه أوريبيه، ١٩٧٦ بوينوس آيريس، عن فيتزجيرالد / ترجمة عن الفارسيّة،٢٠١٠/ الكورنشيّة: كَانس جووان ريتشاردز، ١٩٩٠ / الفنلنديّة: تيوفو ليي، ١٩٥٧ / الإيديشية: ماريه ب. جافه، ١٩٦٩/ المالايزية: و. هاملتون، ١٩٦٠/ الماورية: بي هورنيوي جونس، ١٩٧٥/ الألبانية: روشت بلبل كَرامشي، ١٩٤٣/ الإيدو: هانس بريسمارك، ١٩٥١/ الإيوكو: م. بنيامين باسكوال، ١٩٧٢/ الفريسيّة: إنّا دي يونغ، ١٩٥٥/ الكَيليّة: أو دونتشادها، ١٩٨٠/ الويلزيّة: جونز.ج. موريس،١٩٨١/ النرويجيّة: أ. كَيرداكر،١٩٩٧/ الأسكتلنديّة: راب ولسون، ٢٠٠٤/ السريانيّة: نعوم فائق (١٨٦٨-١٩٣٠) /اللزكيّة: نظامي عبدالحميدوف، ٢٠١٠ عن الفارسيّة/ اللاتينيّة: توماس هايد (١٦٣٠-١٧٠٣) رباعية واحدة في سنة ١٧٠٠، إدوارد فيتزجيرالد(١٨٠٩-١٨٨٣) (٣٢ رباعيّة) / الإيطاليّة/ الجورجيّة / الصغديّة / الهنغاريّة / و البولنديّة.

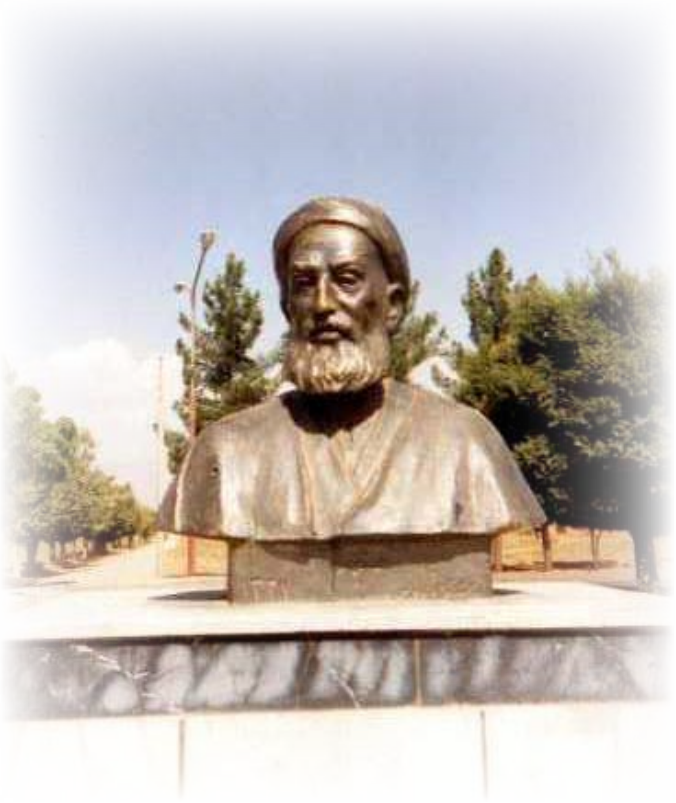

عمر الخيام من أشهر شعراء الفرس على الإطلاق،وقد نال هذا الصيت العظيم بفضل ما كان له من علم وأدب وحكمة،ولقب في حياته بألقاب فخمة،فكان يسمى"حجة الخلق"والإمام والفيلسوف والحكيم،ولقبه غياث الدين وكنيته أبو الفتح،وكلمة الخيام تدل أنها لقب له أو لعائلته،ويقال أن والده كان يصنع الخيام أو يبيعها،والمشهور أنه ولد بنيسابور من بلاد فارس،وهي مدينة عظيمة آهلة برجال العلم والأدب،وفيها الكثير من أئمة العلم والفلاسفة والأطباء،والفقهاء.ونشأ في عصر الدولة السلجوقية الكبرى أواسط القرن الخامس الهجري،وعاصر السلطان ألب أرسلان،والسلطان ملك شاه،وعهد إليه أمور (الرصد) ومات في سلطنة سنجر سنة٥٢٦هج.

وقد صرحت التراجم التي دونها المؤرخون،بأن الخيام كان متمتعا بشهرة واسعة في عصره،وقد نال هذا الصيت العظيم بفضل ما كان له من علم وأدب وحكمة،وعرف أنه حاد الطبع،عصبي المزاج،وأن رباعياته المشحونة بشكوكه وأوهامه وآلامه وتخيلاته وصيحاته واشتغاله في حل المشكلات الفلسفية والعلمية،تدلنا على أنه لم يكن متمتعا بمزاج معتدل،وإنما تغلب عليه الغلظة وحدة الطبع.

رباعيات الخيام

محمد علي محيي الدين

وكان متعدد المواهب،فهو فطنا ذكي الفؤاد،سريع الحافظة،قوي الذاكرة،وقد دلت رباعياته ومؤلفاته،وإطلاعه الواسع في مختلف العلوم والفنون،على عقل راجح،وقريحة نادرة،وعبقرية فذة،وكان متظلعا بالفلسفة والطب وسائر العلوم الشائعة،وفاق لداته،وبز أقرانه وأترابه من معاصريه،ولما شاعت آرائه الفلسفية،وذاعت نظرياته في الحكمة، صدم الناس بهذه الحقائق الناصعة،فوصموه بالزندقة،وطعنوا في عقيدته،وظنوا فيه الظنون.

نظم الخيام الشعر بالعربية والفارسية،ومن شعره العربي:

سبقت العالمين إلى المعالي بصائب فكرة وعلو همه

فلاح بحكمتي نور الهدى في ليال للضلالة مدلهمة

يريد الجاحدون ليطفئوها ويأبى الله ألا أن يتمه

وأشتهر برباعياته التي نظمها على وزن الدوبيت،فهي مضان فلسفته،ومستودع آراءه،وقد فتنت الألباب فجعلته في مصاف كبار الشعراء،وأشهرهم على الإطلاق،وقد نظمها في أزمنة وأمكنة مختلفة،وكانت نفسه تتمثل في كل رباعية تمثلا خاصا،فيقول في كل حادثة كلمة،ولذلك تجد كل رباعية مستقلة بذاتها،لا علاقة لها بما قبلها أو بعدها،وقد ترى تناقظا ظاهرا بين رباعيتين،فتارة تراه مؤمنا مطمئنا،ومرة تجده مرتابا مضطربا،وهو أشبه بأبي العلاء المعري في لزومياته،وهذا يدل على كونه شاعرا حقيقيا تختلج في قلبه أفكار شتى.

والذين نظموا الرباعيات في إيران كثيرون،ولكن الخيام بزهم،وتكاد تكون المصدر الوحيد لفلسفته،والمعبر عن شعوره،وتتضمن كل ما خالجه من شكوك ووساوس ونزعات وهواجس،فعبرت عن آراءه في الجبر والاختيار،والبعث والتناسخ،والدنيا والروح،وهناك شبه كبير بين فلسفته وفلسفة المعري،وكثير من التلاقي في أفكارهما،ويمكن للدارس المقارنة بينهما،وتلمس أوجه الشبه،يقول المعري:

هفت النصارى والحنيفة ما اهتدت ويهود حارت والمجوس مضلله

اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وأخر دين لا عقل له

وقوله:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة أن يبكوا

تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك

وقوله:

أهوى الحياة وحسبي من معايبها أني أعيش بتمويه وتدليس

أكتم حديثك لا يشعر به أحد من رهط جبريل أو من رهط إبليس

وقد ترجمت رباعيات الخيام إلى معظم لغات العالم،كالفرنسية والنمساوية و الإنكليزية و الروسية والإيطالية،أما ترجماتها العربية،فأول من ترجمها نظما الشاعر وديع البستاني،وأعقبه الشعراء، محمد السباعي،و محمد الهاشمي،و أحمد الصافي ألنجفي،و جميل صدقي الزهاوي،وأحمد رامي،وأحمد زكي أبو شادي،وغيرهم، وقد أجمع مؤرخي الأدب وكبار الشعراء والأدباء على أن أصح الترجمات على الإطلاق،هي ترجمة السيد أحمد الصافي ألنجفي،الذي أرانا المعجز في ترجمته الجميلة الرائعة،ولو طلب إلى الخيام أن ينقل رباعياته إلى العربية،لما أستطاع أن يعربها كما عربها المرحوم ألنجفي،ولولا قرابة قوية بينهما في التفكير والصفات،لما استطاع الصافي أن يترجم الخيام،فالصافي خَيام العرب،ومن يطالع شعر الصافي يجد روحه أكثر شبها بروح الخيام،والنصوص الواردة،مختارات من ترجمة الخيام التي نشرت باللغتين العربية والفارسية،ففي الحساب والعقاب له أراء تبدوا خارجة عن المألوف الشائع إلا أنها في حقيقتها صيحة لها ما يبررها في حقيقة الأشياء،وتثير تساؤلا مشروعا في معرض التساؤل والتشكيك:

ألهي قل لي من خلا من خطيئة وكيف ترى عاش البريء من الذنب

إذا كنت تجزي الذنب مني بمثله فما الفرق ما بيني وبينك يا ربي

وفي الخمر طرح صور موحية،ربما كان لشاربي الخمر ولعهم فيها وترديدهم لها،وقد أثارت الكثير من الشكوك في مسيرة الشاعر،الذي عرف بالنسك والزهد والالتزام بالفروض الواجبة،يحاول البعض تبريرها بما للمتصوفة والزهاد،من جنوح لذكر الخمر في أشعارهم،باعتبارها الخمر الإلهي الذي وعد به الإنسان،وقد أورد الكثير من الصور الموحية التي ندر مثيلها فيما قيل في الخمر لغيره من الشعراء:

أن تواعدتم رفاقي لأنس وسعدتم بالغادة الحسناء

وأدار الساقي كؤوس ألحميا فاذكروني في شربها بالدعاء

××××

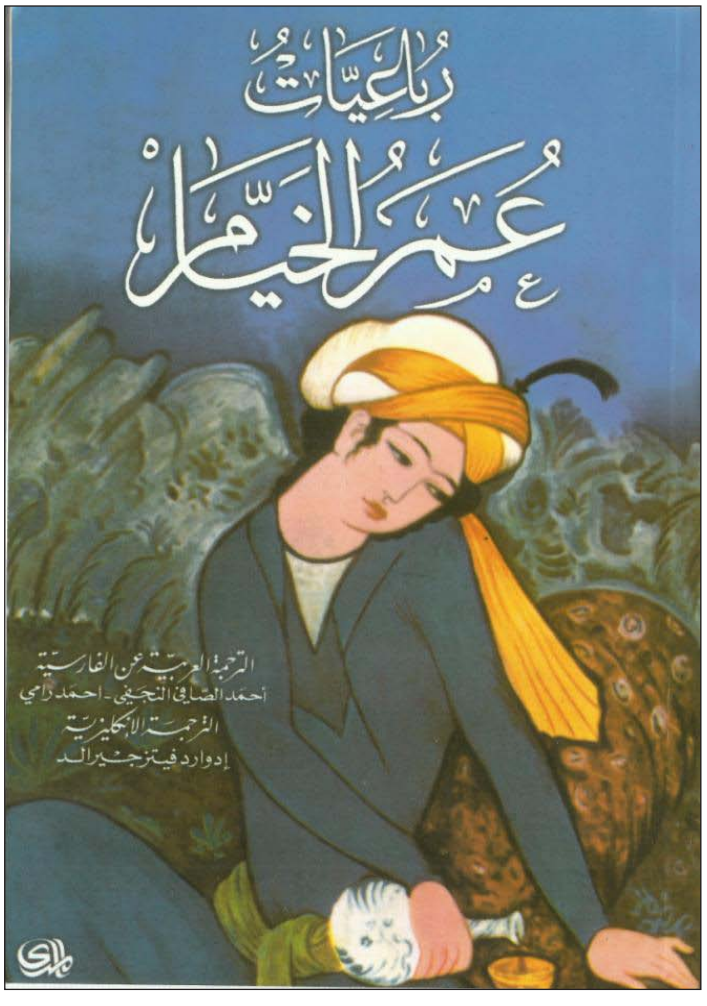

أن تلاقيتم أخلاي يوما
فأطيلوا ذكراي عند اللقاء
وإذا ما أتي لدى الشرب دوري
فأريقوا كأسي على الغبراء

××××

يا باقيا رهن الرياء ورائجا
لقصير عيشك في عناء متعب
أتقول أين الروح من بعد الردى
هات المدام وأين ما شئت أذهب

نفسي تميل إلى ألحميا دائما
والسمع يهوى معزفا وربابا
ان يصنعوا كوزا ثراي فليتهم
يملؤه مدى الزمان شرابا

ويبرر عشقه الطاغي لربات الجمال،وتناول الخمرة،بأن أبواب التوبة تستوعب من يخطي،ولكن سواء قبلت توبته أو لم تقبل،فهو سائرا في الطريق الذي أختاره رغم علمه بما يترتب عليه من حساب:

لا عشت إلا بالغواني مغرما
وعلى يدي تبر المدام الدائب
قالوا سيقبل منك ربك توبة
لا ألله يقبلها ولا أنا تائب

××××

كم للذي بسط الثرى وبنى السما
من لوعة بقلوبنا وعذاب
كم من شفاه كالعقيق وطرة
كالمسك أودعها حقاق تراب

××××

ولعل ولعه العجيب بالخمر يدفعنا للتساؤل عن ماهية هذا العشق،هل هو نابع عن تجارب حسية،أم خيال شاعر مرهف،مازج بين الخيال والحقيقة،فأستوحى هذه الصور الرائعة:

أجعلوا قوتي الطلا وأحيلوا
كهرباء الخدود للياقوت
وإذا مت فاجعلوا الراح غسلي
ومن الكرم فاصنعوا تابوتي

والطمع الذي جبل عليه الإنسان جعل الشاعر يتساءل عن جدواه،إذا كانت نهايته الموت،ولماذا هذا التكالب والاستغلال للآخرين،إذا كانت المنافع قاصرة على حياة لابد أن تنتهي إلى زوال:

هب الدنيا بما تهواه كانت
وكنت قرأت أسفار الحياة
وهبك بلغتها مئتين حولا
فماذا بعد ذاك سوى الممات

ويناقش بأسلوب جدلي رائع،المدعين الذين ينعون على الناس تصرفاتهم،ويعيبون أعمالهم،وهم في الحقيقة أسوء ممن ينعون عليهم،فشارب الخمر لا يقارن بالسفاح الذي يفتي بقتل الناس:

نحن يا مفتي الورى منك أدرى
لم تزل عقلنا مدى السكر راح
أنت تحسوا دم الأنام ونحسوا
دم كرم فأينا السفاح

وفلسفته في الحياة والموت،حافلة بالتشاؤم،وتشوبها مرارة الإحساس بالعدمية،وعبثية رحلة الإنسان في الحياة:

لا يورث الدهر إلا الهم والكمدا
واليوم أن يعط شيئا يستلبه غدا
من لم يجيئوا لهذا الدهر لو علموا
ماذا نكابد منه ما أتوا أبدا

ويدعوا إلى التمتع بأطايب الحياة،فما تخبئه الأيام،فيه الكثير مما يجعلك تفكر في أيامك دون الخشية مما سيكون:

لا تخشى حادثة الزمان فأنها
ليست بدائمة علينا سرمدا
وأغنم قصير العمر في طرب ولا
تحزن على أمس ولا تغشى غدا

ولا ييأس مما يضمره الله لعباده من العفو،فالجود أن يعطى من يستحق العطاء،وهو المخطيء الذي سيحظى من الكريم الرحيم ما يجنبه العذاب:

يا رب أنك ذو لطف وذو كرم
ففيم لا يدخلن المذنب الخلدا
ما الجود أعطاء دار الخلد متقيا
أن العطاء لأصحاب الذنوب ندا

ويأسى لحال الإنسان المتكبر،فهو لا يعلم أن مصيره سيكون ذات المصير لمن هو دونه منزلة في المجتمع،وعندما يضمحل جسمه ويغدو ترابا،سيكون حاله حال الآخرين،جرة من الجرار التي لا يستطيع أحد تمييز مصدرها،هل هي لهولاكو،أو لحمال فقير:

مررت بمعمل الخزاف يوما
وكان يجد بالعمل الخطير
ويصنع للجرار عرى ثراها
يد الشحاذ أو كف الأمير

وربما يتجاوز الحدود في تساؤله عن كنه العدالة،عندما يقوم من أبدع في عمل فني رائع،بتحطيمه،وإحالته إلى هباء:

هل ألجام مهما تم صنعا ودقة
يرى كسره من كان منتشيا سكرا
ففيم يرى الخلاق ساقا لطيفة
ورأسا وكفا ثم يكسرها كسرا

وينعى على بعض العلماء انصرافهم لأعمال لا تخدم الإنسان في حياته،ويبتعدون عن الأعمال العظيمة التي يتطلبها الواقع،ويحتاجها الإنسان،وقد وجدت فكرته صداها في أراء الكثير من العلماء الذين خاضوا الأمور العامة،وسعوا لإسعاد الآخرين:

أن كنت تفقه يا هذا الفقيه فلم؟
تلحوا فلاسفة دانوا بأفكار
هم يبحثون عن الباري وصنعته
وأنت تبحث عن حيض وأقذار

والدهر الخؤون،والأقدار القاسية،هي التي جعلت الأغبياء والسذج واللئماء ينعمون بالعيش الرغيد،في الوقت الذي يلاقي الكرماء وأصحاب العلوم والمثقفين العنت والقهر والأضطهاد:

يا دهر هل بالذي تأتيه تعترف
ألم تزل بزوايا الظلم تعتكف
تعطي اللئيم نعيما والكريم عنا
لا شك أما حمار أنت أو خزف

وهناك الكثير من الصور الرائعة التي لم نتناولها في هذه العجالة،عسى أن تكون موضوعا قادما نتناول فيه جانبا آخر من فلسفة الخيام.

عمر الخيام الشاعر المفكر والفيلسوف (د/ أحمد موسى)

نُشرت هذه المقالة في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة شعيب الدكالي بالجديدة في المغرب، العدد المزدوج ١٢-١٣، سنة ٢٠١٠.

لم يكن عمر الخيام أخصائياً في العلوم الرياضية والحكمية فحسب، بل كان فوق ذلك شاعراً ممتازاً ومفكراً من أكابر المفكرين، وقد وضع مؤلفات فلسفية وفقاً لرأي خاص، وكان أستاذاً في الفلسفة لعلماء متشرعين، وهذا يعني أنه ليس مفكراً فحسب بل فيلسوفاً صاحب طريقة ومذهب.

للخيام نفاذ فكر ونظر خاص وشفافية في البيان، وسعة قريحة وخيال، وبعدٌ عن الإطناب في الكلام تجعل له مكانة سامية خاصة بين شعراء الفرس المبرزين الذين سنعمد إلى التعريف بهم وبآثارهم على الآداب الأخرى في سلسلة من المقالات تحت عنوان"عمالقة الأدب الفارسي"نخصص الحلقة الأولى منها للشاعر الفيلسوف والمفكر عمر الخيام.

لقد كان لعمر الخيام تأثيره الكبير في أوروبا التي عرفته شاعراً أقرب في تفكيره ومذهبه في الحياة إلى الوجودية، وأصبح الخيام، بفضل ترجمة رباعياته[١] إلى لغات عالمية كثيرة، عَلَماً من أعلام التراث الأدبي العالمي.

لا يخفى على الدارس للآداب الشرقية عامة التفاعلات والتعامل الأدبي بينها تأثيراً وتأثراً، إن على مستوى الشكل أو المضمون.

ولمن أراد التبين من ذلك فعليه مراجعة ما كتب عن التفاعل والتأثر المتبادل بين الأدبين العربي والفارسي وكذلك التركي و...[٢].

وفي محاولة لإبراز تأثير الآداب الشرقية وبالخصوص الأدب الفارسي في الآداب الغربية نخصص هذه المقالة للتعريف بالخيام ودور رباعياته في الاستفادة الكبيرة التي حققتها الحضارة الغربية من الحضارة الشرقية مناقشاً أثر الترجمة من رباعيات الخيام إلى لغات أخرى في تحقيق انتعاشة ثقافية تؤكد ريادة الحضارة الشرقية (الفارسية) وأثرها الواضح في الغرب... فالآداب الشرقية والإسلامية لها تأثير واضح وملموس في الآداب الغربية، فالأدب الفارسي ساهم بنصيب وافر في تدعيم مسيرة التأثير الشرقي الإسلامي على الغرب، والأمثلة على هذا المدعى كثيرة وجلية للعيان، فتأثير كتاب"كليلة ودمنة"وتأثير عمر الخيام –كما سنرى في هذا البحث – لا يمكن بحال من الأحوال إلا أن يكون دليلاً صادقاً على الصلات المتبادلة بين الثقافة الشرقية والغربية. وتعد فترة القرن الثاني عشر الميلادي من الفترات المهمة في تاريخ الاتصال بين الشرق والغرب صاحبتها حركة قوية للترجمة واسعة النطاق تدفقت خلالها الثقافة العربية إلى الآداب الأوروبية خاصة من خلال معبر إسبانيا التي شكلت محوراً هاماً للاتصال بين الحضارتين...وفي هذا الصدد لا يخفى أن الترجمة كانت ومازالت تضطلع بدور رئيسي في عملية الحوار بين الشرق والغرب منذ أقدم العصور حيث تؤكد الشواهد التاريخية أن الإغريق اهتموا بالترجمة ونقل الإنتاج الثقافي العلمي من دول المشرق وترجمته للاستفادة منه. كما أولع المستشرقون البريطانيون في ترجمة التراث الهندي ونقله للغرب يضاف إلى كل هذا ترجمة الغرب لما أفرزته الحضارة الإسلامية، فكانت نواة للنهضة الأوروبية الحديثة...كما لا يجب نسيان أساليب التلاقي بين الشرق والغرب مثل الأندلس وما شهدته خلال فترة الحكم الإسلامي من رواج الترجمة، وكذلك الحروب الصليبية كانت حلقة وصل هامة بين الشرق والغرب، وأيضاً أشير إلى التجارة بين المشرق والمغرب وما كان لها من دور بارز في حركة الترجمة ونقل أفكار الشرق إلى الغرب.

في إطار هذا الحوار الذي أشرت إليه سأخصص سلسلة من المقالات موضوعاً للحديث عن شخصيات أديبة وإسلامية جامعة للمعرفة بشتى ضروبها تركت بصمات واضحة على الآداب العالمية..سنتحدث في هذه الحلقة عن شخصية عظيمة تنتمي إلى الثقافة الإسلامية في شكلها الفارسي، والتي شغلت كثيراً بال العلماء والمستشرقين في الشرق والغرب، وتتمثل في عمر الخيام الشاعر والفلكي الشهير. وأفعل ذلك لسببين اثنين:

أولا: لقد أصبحت رباعيات الخيام بفضل الترجمات المتعددة إلى اللغة العربية مشهورة في العالم العربي المعاصر.

ثانياً: لقيام أحد مشاهير المستشرقين الأوروبيين"ادوارد فيتز جرالد"بترجمته للرباعيات بعد اكتشافها، وكان ذلك في القرن التاسع عشر، حيث أثبتت بذلك أن عمر الخيام لم يكن عالماً في الرياضيات فقط، بل كان أيضاً شاعراً كبيراً جديراً بالمقارنة بكل من: حافظ الشيرازي والفردوسي ونظامي عروضي وجلال الدين الرومي[٣] والشعراء الفارسيين الآخرين.

عن الحوار المتمدن

رباعيات عمر الخيـام ومصادرها المختلفة

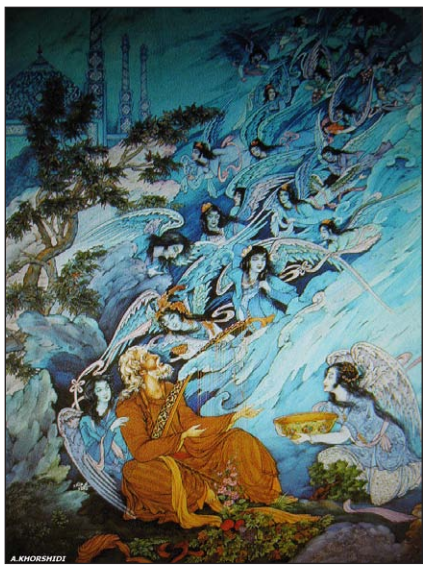

تتمثل الصورة، المتمثلة برباعيات عمر الخيام، التي يعاين القارئ من خلالها جهد الشاعر محمد مظلوم اليوم في هيئة رؤية نظرية نقدية، جمالية ومتفحصة للنص الشعري المترجم تنطلق من بحث وتأملات والتقاطات حول المعنى والدلالة والمعيار الجمالي، ومعايير اللغة وامكانية الترجمة المتجاوزة وطبيعة المنظومات التفسيرية المتصلة بالنقد، وعلاقة اللغة بالمعرفة الفنية، وقد يكون من اللافت حقاً أن البلورة البحثية التي أنجزها محمد لهذه النصوص بكتابه الصادر عن منشورات الجمل، عبر ثلاث ترجمات عراقية رائدة لـ: أحمد حامد الصراف(١٩٢١) وجميل صدقي الزهاوي (١٩٢٨) وأحمد الصافي النجفي (١٩٣١) قد جاءت في إثر تحول لغوي وبحثي، نقدي وجمالي.

عبدالكريم كاظم

يفيد محمد في مراجعاته وإشاراته النقدية المتصلة بترجمة رباعيات الخيام، من مصادر متنوعة، كترجمة عيسى أسكندر المعلوف، وديع البساتي وأحمد حافظ عوض، ويقيم مقدمته النقدية على أساس أن ثمة اختلافات جوهرية بين النص الأصلي والمترجم، وأن النص الأصلي يحوي بداخله من التركيب اللغوي ما يمكنه، أحياناً، من تجاوز محنة الترجمة أو خياناتها وأن هذه القدرة على التجاوز هي سبب ونتيجة، في ذات الوقت، لطبيعة الرباعيات ولغتها، ومن الطبيعي أن تمثل هذه الرباعيات عناصر لغوية فنية كافية لتأسيس مفترقات نوعية ومغايرة عن المنظور الفني الذي دشنته حقبة البدايات الأولى للترجمة وما قبلها وما تلاها من تحديث وتجديد قاما على نفي تجربة التنزيه اللغوي، المتصل بالنص المترجم، وأن يكون النص جزءاً مما يرى القارئ أنه اتجاه جمالي جديد في عالم الترجمة بالرغم من كل محاولات التنقيح. الضخ التي اشار إليها محمد بقوله: (وإزاء محاولات التنقيح المستمرة لتمييز الأصيل من الدخيل في الرباعيات كان هناك بالمقابل ضخ متواز لم ينج منه الخيام).

تحتكم قراءة محمد النقدية إلى استخدام أسلوب معرفي لدراسة الظواهر الفنية واللغوية من خلال النماذج المترجمة المختارة بجهد جمالي نادر، وبعض الملحقات المترجمة اللاحقة التي اشار اليها محمد في نهاية الكتاب كترجمة طالب الحيدري (١٩٥٠) ومهدي جاسم الشماسي (١٩٦٨) وعبدالحق فاضل (١٩٥١)، يستبعد بعضها لعدم فنيتها ويستبقي بعضها الآخر، ثم يرتبها ترتيباً جمالياً وينسقها تنسيقاً نقدياً بحيث تصبح، من وجهة نظره، مترابطة لغوياً ومماثلة للعلاقات الفنية واللفظية والرمزية المتصلة بالنص الشعري المترجم ودلالاته، وهكذا يحتفظ النص المترجم، من الناحية اللغوية أو الاوزان المتصلة ببحور الشعر على الأقل، لنماذجه التفسيرية المتصلة بفنية اللغة وبهامش من النسبية بين درجات المعيارية النقدية الموازية لهذه النماذج الشعرية المترجمة من الرباعيات.

إن حساسية محمد مظلوم الشعرية في الالتقاط والبحث في تفاصيل النص لغوياً وفنياً ثم التجريد والمقاربة والمقارنة، كل ذلك أظهر مهارة نقدية. بحثية مختلفة تتعلق في بناء التصورات الجمالية للنصوص، ولعل من خلال هذه الميزة أو الجهد النقدي يستطيع القارئ أن يبني تصوره الجمالي الخاص في الشكل الفني. اللغوي للرباعيات، لكن بمنتهى الحذر، وهذا الأخير يؤتى من مأمنه كما تدل المفارقة الشاخصة عادة.

بحث محمد في هذه النماذج المترجمة بوصفها شكلاً شعرياً لا يأخذ شكل متتالية تتحقق في الزمان بل تأخذ شكل نماذج شعرية تتبع الواحدة الأخرى وليُظهر جماليتها المتمركزة في المعنى المقابل للدلالة، جمالية تشغل مركز القراءة مقابل النقد أو رصانة البحث، وبهذا تصبح الرباعيات، كما يبدو لي كقارئ، وحدها هي المركز المتصل باللغة ليبدأ الشكل الجمالي، للنص، في الحضور ثانية.

إن هذا البحث الجمالي، في طبيعة هذه الترجمات، هو ما يدأب محمد على تتبعه في شكل النص الشعري المترجم منذ ظهور رباعيات الخيام وانتهاءً إلى اللحظة الراهنة، وقد أفرد هذا الجهد البحثي لرباعيات الخيام مكانة شعرية خاصة، ما يعني أن هذا الجهد يرتقي إلى قراءة نموذجية نادرة تُعين القارئ جمالياً وتعبر، في نفس الوقت، عن جوهر الرباعيات اللغوية والفنية، وتفرق بين الترجمة الشائعة التقليدية، المباشرة والمعجمية للنصوص وبين الترجمة الناقلة للمعنى أو مضمون الكلمة. الجملة الشعرية، إن محمد مظلوم يضيف بذلك اجتهاداً وتفسيراً جمالياً آخر إلى مجمل المحاولات العربية لترجمة رباعيّات عمر الخيام، إلا أن ما نريد الإشارة إليه في هذه القراءة النقدية الموجزة هو الموقع الذي يسديه محمد لخصوصية النص المترجم، عراقياً، والتبعات النقدية التي تنجر عن مثل هذه الترجمات المختلفة إذ يقول: (هناك خصوصية في الترجمات العراقية الثلاث للرباعيّات هنا، كونها تخلصت وبشكل كامل من عبء ترجمة فيتزيجيرالد) وهذه إشارة جمالية محضة.

إن هذا الكتاب هو من ذلك الشكل المغاير الذي يرسل زخماً من العلامات والإشارت والالتقاطات النقدية الرصينة في اتجاهات متعددة دفعة واحدة، وفي مستويات هذه الكتابة البحثية وتدليلها يعثر القارئ على الجملة الشعرية الخالصة التي كتبها عمر الخيام في رباعياته، كما تدعونا هذه الكتابة أيضاً إلى التأمل النافذ والاستنتاج النقدي المجرد، ومن هنا أيضاً نكون أمام كتابة لا تغني الشروح أو المصادر والهوامش والملاحظات المعاينة لظلال النصوص المترجمة وطرائقها التعبيرية وحسب بل تقدم نفسها بوصفها إشارة كينونة لها استبصارها الشعري كما لها جمالها اللغوي الموازي للبحث والتقصي والمثابرة إضافة إلى فطنة الشاعر محمد مظلوم ومواظبته على تقديم مادة نقدية جمالية بأسلوب مغاير، أقل ما يقال عنه أنه يستحق التأمل والقراءة.

إن ما يقدمه محمد، في كتابه، هو صياغة مثلى يمكن أن نلمس في إشاراتها وقع اللحظة الشعرية المنطلقة من المعنى المتصل برباعيات الخيام أو بعددها أو عددُ ترجماتها فيشير هنا: (وخلال مائة عام منذ أول ترجمة لها بلغ عدد الترجمات العربية للرباعيّات العشرات (٦٥) ترجمة حسب إحصائية يوسف بكار و (٥٢) ترجمة حسب إحصائية عبدالمنعم الحفني) وبقدر ما يكون الإحساس الجمالي بالمعنى الشعري، حسب هذا العدد من الترجمات، متفاوتاً يصعب، أحياناً، اكتشاف المعنى نفسه من خلال القراءة، ومع هذا علينا أن نمضي في الاستنتاجات النقدية لما هو أبعد من المعنى ومن الزاوية التي تنبثق من الدلالة المنبثقة أصلاً من التحولات اللغوية والفنية المتصلة بالترجمة. ثمة إشارة أخرى، تتصل أيضاً بعدد الرباعيات نوردها هنا: (لم يكن متاحاً معرفة عددها الحقيقي وهذا ما يحدث عادة بدرجات متفاوتة في كثير من النصوص الفذة/قصيدة مالك بن الريب ومرثية الأندلس لأبي البقاء الرندي وغيرها من الأشعار الخالدة).

ثمة مفارقات كثيرة متعلقة بشخصية عمر الخيام أو صفاته مثلما هي متعلقة بعدد الرباعيات وعلينا أن نأخذ في الحسبان شكل أو خصائص هذه المفارقات المتنوعة التي يتصف بها الخيام، وعلى الأرجح سيكون من المفيد أن نتذكر أن صفات الخيام التي تتزيا بزي المتصوف والشهواني مرة وبزي الفيلسوف والعالم مرة أخرى هي صفات أعجز من أن تحتكر كل الحقيقة المتصلة بماهية الشاعر، فهذه الأخيرة ينبغي البحث عنها في لعبة أختلاف الصفات المتنوعة وتواراتها الموازية للقراءة النقدية وتفرعاتها أيضاً ويمكننا الإشارة في هذا المقام إلى ما أورده محمد هنا: (كلما ازداد عددُ الرباعيّات المترجمة طغت معضلة الرباعيّات الجوالة على سطح الترجمة فبدت شخصية الخيام من خلالها شخصية هلامية) ويضيف أيضا: (ويشكل العدد الحقيقي للرباعيّات في تصور كل مترجم معضلة/من هنا تصبح ملاحقة النص الأصلي هي المعضلة الأولى قبل أن نبحث عن دقة الترجمة بين مترجم وآخر).

خاتمة: لفرط ما اهتم محمد مظلوم، في كتابه هذا، بلغة عمر الخيّام الشعرية وتفسير عمليات شرح الرباعيات المترجمة وقراءتها وطرائق تحقيق المعنى الشعري والمقاربة بين الأوزان الشعرية، فقد عرفت التقاطاته النقدية ميلاً متزايداً إلى الاهتمام باللغة وتحليل الدور الذي تؤديه، والحق أن كتاب محمد خرج في خطوطه أو إشاراته البحثية عن المنظورات التقليدية التي تهيؤها جملة المؤثرات النقدية الشائعة، كتاب يمثل خلاصة تأملية لأفكار عمر الخيام ورباعيّاته المترجمة، كتاب يطرح الفكرة الموازية للمعنى الشعري المترجم الذي يقوم على تصور جمالي يجعل اللغة الشعرية نظاماً مؤلفاً من أبنية فنية متنوعة فتكون الدلالة المعيارية فيه هي الأصل، كتاب يقوم بتدريب مخيلة القارئ على استقبال رباعّيات الخيام المترجمة بطريقة مغايرة وعلى فحص الالتباسات اللغوية بين المعاني المتعددة وتحولاتها اللفظية أو تراكيبها الجوهرية المختلفة.

عمر الخيام و ت. س. إليوت

عبد المنعم الفيا

يعد الشاعر الإنجليزي الأميريكي الأصل، تي. إس. إليوت T.S. Eliot.. (١٨٨٨ – ١٩٦٥)، أبرز رموز الحداثة الشعرية في القرن العشرين واعظمهم تأثيرا في شعراء العالم وشعراء القصيدة العربية الحديثة بخاصة. ولعل قصيدته (الارض الخراب) نالت من الشهرة ما لم تنله قصيدة اخرى، ونسج على منوالها شعر كثير ولا يزال ينسج.

وربما أهم ما يميز هذه القصيدة بنيتها الديالكتيكية التي تزاوج بين التجديد في اشكال التعبير الشعري وبين النزعة الكلاسيكية في التفكير. ومن ذلك ان القصيدة ضمت بين ثناياها اشارات واقتباسات من نصوص وآثار قديمة وحديثة تراوحت بين الاساطير والديانات القديمة الى نصوص لشعراء وادباء وباحثين قدماء ومعاصرين. الأمر الذي حدا بالشاعر ان يضع للقصيدة هوامش لتسجيل بعض المصادر التي استقى منها تلك الاشارات والاقتباسات.

وقد يلاحظ القارئ المطلع على القصيدة، كما لاحظ الباحث الدكتور عبد الله الطيب المجذوب، ان هذه الهوامش قد خلت من اي اشارة الى مصدر عربي او اسلامي. وهذه الملاحظة صحيحة لكنها لا تصلح كفرضية لاتهام اليوت بانه اغفل ذلك عن عمد لكي يخفى امر سرقته وحذوه حذو الشعر العربي الجاهلي على النحو الذي ساقه الدكتور الفاضل في دراسته (الفتنة باليوت خطر على الادب العربي) والتي نشرت بمجلة الدوحة سنة ١٩٨٢ (١). وكنا قد نشرنا بعض الردود على الدكتور ارجعنا فيه ما ظنه الدكتور عبد الله الطيب سرقة من الشعر الجاهلي، الى المصادر التي ذكرها اليوت في الهوامش والى التجربة الشعرية والحياتية للشاعر. (٢)

بيد ان ما لم يلحظه الدكتور عبد الله الطيب في تلك الدراسة، هو اثر رباعيات عمر الخيام في التجربة الشعرية للشاعر الانجليزي الامريكي الاصل تي اس اليوت. صحيح ان الدكتور قد اشار عرضا في تلك الدراسة الى ان اليوت ذكر انه قرأ عمر الخيام في شبابه الا ان عبدالله الطيب لم يتوقف للتساؤل عن الاثر الذي يمكن ان يتركه الخيام في شعر اليوت. الحقيقة ان اليوت أقر غير مرة، في مقالاته واحاديثه ومحاضراته، بتأثره برباعيات عمر الخيام. وقد اشار بعض النقاد الغربيين الى ذلك، الا ان النقاد والدارسين العرب لم يتصدوا لبحث هذه الظاهرة وتقصي آثارها ومدى تغلغلها في شعر اليوت.

وعلى كثرة اهتمامي واطلاعي على ما كتب عن اليوت لم تصادفني سوى اشارة واحدة، وردت عرضا في كتاب «أوتار شرقية على القيثار الغربي"للدكتور احمد البدوي، ألمح فيها الى وجود شبه بين افتتاحية قصيدة «الارض الخراب"ورباعية للخيام، حسب، ترجمة فيتزجيرالد. ولكنه لم يتوقف اكثر من ذلك لاستكناه علاقة اليوت برباعيات الخيام،اذ كان منشغلا باثبات فرضيته الاساس او ما اسماه (٣) «ماء السماء الاسلامية في الارض الخراب"وهي، الفرضية التي يقول فيها ان اليوت أخذ، فكرة الارض الخراب، من تعبير «الارض الموات"في القرآن الكريم. وواضح ان أحمد البدوي كان يقتفي في ذلك أثر دراسة الدكتور عبدالله الطيب المشار اليها.

مكانة رباعيات الخيام في الادب الانجليزي:

كان الشاعر الانجليزي، ادوارد فيتزجيرالد Edward FitzGerald (١٨٠٩ – ١٨٨٣) قد ترجم رباعيات الخيام من الفارسية الى اللغة الانجليزية ونشرها لاول مرة سنة ١٨٥٩.والجدير بالذكر حتى ذلك الوقت لم يكن شعر الخيام قد نقل الى اللغة العربية.

وقد حظيت ترجمة ادوارد فيتزجيرالد، لرباعيات الخيام، من الفارسية الى الانجليزية بين القراء الانجليز بشعبية منقطعة النظير، لم تبلغها حتى اعمال شكسبير، وتغلغلت عميقا في وجدان حملة الثقافة الانجلوسكسونية وجرى بعض منها على الالسن، مجرى الامثال والحكم. وعن ذلك جاء في مقدمة طبعة دار بنجوين، لرباعيات الخيام:(٤)

«.. وتعد ترجمة فيتزجيرالد لعمر الخيام اشهر الترجمات الادبية الى الانجليزية طرا. ولم تضاهيها في ذلك حتى اشهر الترجمات شعبية مثل ترجمة هومير لشابمان او ترجمة «اوفيد» لقولدنج. فقد تغلغلت في النسيج العام للغة الانجليزية وصارت تشكل جزء لا يتجزأ من رصيد العبارات والاقوال الانجليزية المأثورة التي تجري مجرى الامثال، حتى ان طبعة معجم اكسفورد لسنة ١٩٥٣ قد ضمت تسعاً وخمسين رباعية كاملة من جملة ١٨٨ اقتباسا مأثورا، اي ان الرباعيات بلغت نسبة الثلثين من جملة الامثال التي ضمها هذا السفر، وهي نسبة تفوق ما ورد عن الكتاب المقدس وشكسبير»..

وتذهب المقدمة الى ان الشاعر الانجليزي الكبير، جون كيتس، قال انه يفضل ان يحمل معه في سفينة، ترجمة الرباعيات، من ان يحمل هومر بترجمة شابمان. وربما يرجع نجاح هذه الترجمة الى فيتزجيرالد نفسه، فيبدو ان تعلقه برباعيات الخيام وتغلغلها في وجدانه جعله يسكب ماء روحه في الترجمة حتى اخرجها بهذه الصورة التي جعلت القارئ الانجليزي يحس وكانها مكتوبة في الاصل باللغة الانجليزية.

أضف الى ذلك ان فيتزجيرالد ربما وجد في الخيام توأم روحه، حتى انه كتب ذات مرة الى صديقه واستاذه ادوارد كاول، الذي علمه الفارسية باكسفورد وعرفه بالرباعيات (٥) «في الحقيقة لدي اعتقاد ان الخيام يخصني اكثر منك، فانا وهو صنوان، انت يمكنك ان تتذوق كل ما له من جمال، ولكن في بعض النواحي، لن تبلغ ما احسه انا منه، اليس كذلك؟! «.

ولهذا السبب يرى بعض النقاد ومختصي الأدب الفارسي انه اتبع اسلوبا حرا في الترجمة ابعدته احيانا كثيرة عن الاصل. ويقر فيتزجيرالد بذلك في رسالة الي استاذه كويل ويقول:(٦) «.. فقد غيرت في الرباعيات ومزجت بعضها ببعض، وأخشى انه ربما ضاع شيء من بساطة المعنى وسهولة الالفاظ التي تعد من أهم مزايا عمر الخيام».

لقد انصب اهتمام فيتزجيرالد على الصياغة وقوة الاداء الشعري وأشكال التعابير الانجليزية الاكثر جزالة، حتى انه اعاد تنقيح الترجمة خمس مرات في طبعات مختلفة. ولكن لم يتعد عدد الرباعيات التي نقلها الى الانجليزية، المائة رباعية ورباعية.

وقد اختلف الباحثون في عدد الرباعيات المنسوبة للخيام. ولكن الرأي الراجح انها تتراوح بين مائتين الي ستمائة. وهنالك اكثر من مخطوطة للرباعيات لذلك تختلف الترجمات باختلاف المخطوطات. وتتكون الرباعية، في الاصل، من بيتين وأربعة أشطار. وهذه الطريقة في النظم تعرف في الفارسية بالدوبيت. دو، تعني: اثنيين. والبيت هو بيت، كما في العربية، ويقصد به البيت من الشعر. وكل رباعية مستقلة بذاتها، معنى ومبنى.

وقد قمت بمقارنة بين ترجمة فيتزجيرالد وبين النص العربي للرباعيات الذي نقله عن الفارسية احمد الصافي النجفي، فوجدت انه ليس من الصعب التعرف على النص العربي في النص الانجليزي. وهذا دليل على ان فيتزجيرالد لم يبعد كثيرا عن الاصل وان لم يتقيد بحرفيته. والاجمل انه، حافظ على نظام الاربعة أشطار في الرباعية الواحدة. ولكني لحظت في ترجمته، ورود بعض الرباعيات التي لا وجود لها في الترجمات العربية التي أطلعت عليها، سيما ترجمة أحمد الصافي النجفي، والتي تعد من اكثر الترجمات العربية دقة وعددا، اذ بلغت ثلاثمائة وخمسين رباعية بينما لم يتجاوز ما نقله فيتزجيرالد الى الانجليزية المائة رباعية ورباعية.

قصة اليوت مع رباعيات الخيام:

في حوار أجري مع اليوت، بمجلة ذي باريس ريفيو سنة ١٩٥٩ ونشر نصه العربي بالعدد الاول من مجلة «حوار»، سئل اليوت، عن الظروف التي دفعته لنظم الشعر أول مرة، فأجاب:(٧)

«بدأت نظم الشعر، وانا كما أظن، في الرابعة عشر من عمري، بتأثير فتزجيرالد في رباعيات الخيام. فكتبت بذات الاسلوب عددا من الرباعيات المفعمة بروح التشاؤم والالحاد والياس ولكن لحسن الحظ أتلفتها جميعا، ولم يبق منها واحدة، ولم أرها لمخلوق».

ربما أثارت اشارة اليوت هنا الى اثر اسلامي وشرقي قديم في حجم عمر الخيام، استغراب القارئ العربي وربما انطوت هذه الاشارة، على مفارقة كبرى ذات مغزى عميق. فكيف لاليوت الذي ألهم شعراء قصيدة الحداثة العربية الثورة على القصيدة العربية التقليدية، تلك الثورة التي احدثت هذا التحول الشامل وهذا الانقلاب الكامل في نظام القصيدة العربية شكلا

◄

ومضمونا وتذوقا، كيف له ان يبدا تجربته الشعرية متاثرا بالخيام الذي يرجع تاريخ حياته الى الف سنة او يزيد؟.

ولكن ليست هذه المرة الاولى التي يصرح فيها اليوت بتأثير رباعيات الخيام على نشأته الشعرية فقد بلغت عدد المرات التي ألمح فيها الى رباعيات الخيام نحو ست مرات في مناسبات مختلفة. وكان اهم تصريح في شأن الدور الحاسم الذي لعبته رباعيات الخيام في توجيه تاريخه الشعري، قد أدلى به في سياق حديث له عن تطور الذوق الشعري نشر بكتابه: «فائدة الشعر، فائدة النقد» وهو قوله:(٨)

«.. اذكر ان رغبتي في الشعر الذي يحبه الصغار عادة، قد تلاشت ببلوغي سن الثانية عشر، فظللت لبضع سنوات بلا رغبة في قراءة الشعر، الى ان التقطت بالصدفة ذات يوم وانا في الرابعة عشرة، نسخة من رباعيات فيتزجيرالد المترجمة عن عمر الخيام، كانت ملقاة جانبا. فكانت المفأجاة ان غمرتني هذه القصيدة بدفق مباغت من الاحاسيس، بدا فيه العالم امامي، زاهيا، متألقا، تظلله ألوان براقة ممزوجة باللذة والألم. تحت تاثير هذه المشاعر الجديدة أقبلت على التهام شعر بايرون وشيلي وكيتس وروسيتي وسونبيرن».

وهكذا كانت رباعيات الخيام الشرارة التي أضرمت نار الشعر في وجدان أعظم شعراء العالم تاثيرا في القرن العشرين، وفتحت امامه آفاقا جديدة قادته للتعرف في وقت مبكر على رموز الشعر الانجليزي في ذلك الوقت.

اما قوله في حواره مع مجلة ذي باريس ريفيو الذي نشرته مجلة حوار، انه أتلف القصائد التي كتبها بتأثير الخيام، فلا ينفي، بل يؤكد، تغلغل الرباعيات في وجدانه وانسرابها في مخيلته. وحاله هنا يحكي حال الشاعر العربي القديم الذي سئل كيف له ان يصير شاعرا، فقيل له احفظ الف بيت من الشعر ثم انساها. بالطبع سوف ينساها انما ستظل عالقة في اللاوعي كمخزون ترفد وتغذي ذاكرته الجمالية.

لذلك ليس غريبا، كما يقول الناقد ساوثام Southam(٩) «ان نعثر على صور وانغام وتفاصيل الرباعيات الخيامية في قصائد: بروفروك، وصورة سيدة، والرباعيات الاربع وقصيدة جيرونشن..». ومع ان، ساوثام لا يورد، في مرشد الدارسين الذي وضعه لفهم قصائد اليوت، اي مثال للتدليل على ذلك الا ان القارئ المتمرس لشعر اليوت سيلمس على التو اصداء الرباعيات بترجمة اداورد فيتزجيرالد، تردد في سائر قصائد اليوت ابتداء من اغنية العاشق بروفروك،وصورة سيدة، وانتهاء، بأربع رباعيات، وهي آخر ما نشره اليوت من شعر.

ويذهب اليوت بعيدا، في الاعجاب بالخيام، الى حد تفضيله له على الشاعر الانجليزي الكبير شلي، اذ يقول في سياق حديث عن شعر شيلي وكيتس، بكتابه (فائدة الشعر، فائدة النقد)(١٠) «..لست بوذيا ولكن بعض نصوص البوذية القديمة تأسرني مثلما تفعل بعض نصوص العهد القديم من الكتاب المقدس. بل ما زلت اجد متعة في قراءة عمر الخيام فيتزجيرالد، برغم انني لا اشاركه نظرته التبسيطية للحياة، ولكنني لا أطيق بعض افكار شيلي التي تنغص علي الاستمتاع بقراءة أشعاره، بل ان بعض هذه الافكار تفقدني اي متعة في القراءة..»

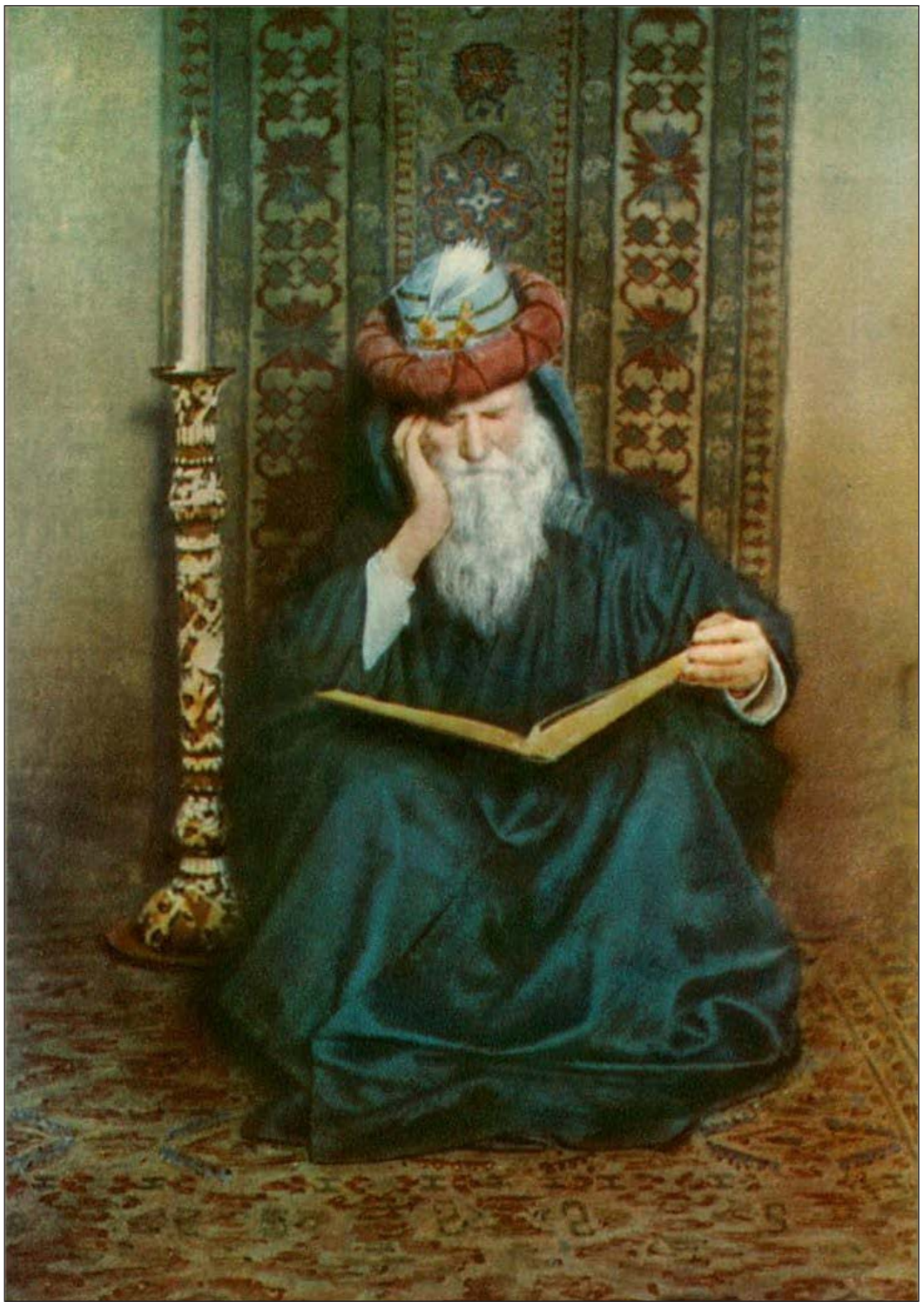

الى هذا الحد بلغ اعجاب اليوت بعمر الخيام. فهو يفضل نظرة الخيام البسيطة، الى الحياة على التفلسف المتكلف والملل في شعر شيلي!!

فلا عجب اذن ان تسربت الكثير من معاني وافكار واخيلة الخيام الى قصائد اليوت. ولا يقتصر ذلك على قصائد أول الشباب، بل يشمل حتى قصائده التي كتبها في فترة متاخرة نسبيا مثل (الرباعيات الاربع) الاكثر والاعمق تفلسفا. والعنوان وحده يكفي في الدلالة على ذلك. الحقيقة هنالك شبه كبير بين الخيام واليوت، فكلاهما شاعر متفلسف، فاليوت دارس للفلسفة ومتخصص فيها وكلاهما، ذو نزعة تشاؤمية من الحياة، وذو وعي حاد بالزمن والاحساس بوطأة سلطانه وصيرورته.

وردة في اليد:

الخوف الميتافيزيقي من الفناء هو القاسم المشترك في التجربة الشعرية لكل من الخيام واليوت. فالانسان من تراب والى التراب يعود. والربيع والوردة وغناء البلبل، ايقونات رمزية مشتركة بين الخيام واليوت في الدلالة على قصر الحياة والتحسر على ذهاب الشباب وانقضائه سريعا. في قصيدة Portrait of a Lady (صورة سيدة) يقول اليوت:

«الان حيث تزدهر زهور الليلاك، لديها باقة من الليلاك في غرفتها،تلف زهرة حول اصبعه اثناء الحديث. هيه يا اصدقائي انتم لا تعرفون، لا تعرفون ما الحياة، يا من تمسكون بها بين ايديكم سوف تتركونها تتسرب، تسرب منكم، فالشباب قاس لا يرحم».

انه يشبه هنا الحياة بالزهرة التي تمسك بها بين يديها فهي لا تدوم الا بمقدار ما تدوم هذه الزهرة التي ما تلبث ان تذبل وتذوي وتسقط من بين الاصابع. هكذا يولي الشباب سريعا مخلفا الذكريات والرغبات المكبوتة، يؤجهها مقدم الربيع ومن هنا تنبع قساوته. هذا المعنى ما هو الا ترديد لقول الخيام الوارد في اكثر من رباعية من ترجمة فيتزجيرالد:

«ثم جاء الربيع، جاء الربيع وردة في اليد»

ويقول الخيام في رباعية أخرى من ترجمة فيتزجيرالد:

هيا هلموا اسمعوا حكمة الخيام
شيء واحد مؤكد وهو ان الحياة تمضي هباء
وما سوى ذلك اكاذيب
فالزهرة حين تذوي، تذوي للابد

قول اليوت: «حيث تزدهر الليلاك، تلف زهرة حول اصبعه اثناء الحديث»

Now that lilacs are in bloom
And twists one in his finger..
while she talks

يقابل قول الخيام: «جاء الربيع وردة في اليد..، والزهرة تذوي للابد».

And then and then came
Spring، and Rose-in-hand

وقوله: «هيه يا اصدقائي انتم لا تعرفون ما الحياة! سوف تتسرب منكم «يقابل قول الخيام: «هيا هلموا اسمعوا الحياة تمضي هباء».

وتتكرر ذات الفكرة في رباعية اخرى للخيام:

«ستذبل الوردة مع انقضاء الربيع، وسجل الشباب الغض سيطوى، والبلبل الذي يغني على الأغصان متي حط حتى يطير! »

وقد نقل احمد الصافي النجفي هذه الرباعية عن الفارسية نظما بقوله (١١):

قد انطوى سفر الشباب واغتدى
ربيع افراحي شتاء مجدبا
لهفي لطير كان يدعى الصبا
متى اتى واي وقت ذهبا

ان البكاء على الشباب والاحساس بالشيخوخة قبل الأوان من ابرز سمات التجربة الشعرية لاليوت. فقصيدة (صورة سيدة) التي يتاسى فيها على الشباب وذبول الحياة، كتبها وهو لا يزال في سن الثانية والعشرين. وهي ذات السنة التي كتب فيها ايضا قصيدة (اغنية حب الفريد ج بروفروك) وفيها يحس الشاعر بذبول الربيع في قلبه قبل الاوان فيصيح باكيا: «اني اشيخ، اني اشيخ»

ويتجسد هاجس اليوت بالشيخوخة في واحدة من اهم قصائده وهي قصيدة Gerontion (جيرونشن) ومن غرائب الصدف ان اليوت استوحى هذه القصيدة باستلهام شيخوخة فيتزجيرالد مترجم عمر الخيام، حيث يقول في اول سطر بالقصيدة:

ها هو يجلس، شيخ هرم، يحلم بالمطر في فصل الجفاف
يقرأ له صبي.

ويقول انه اخذ مطلع القصيدة هذا من سيرة فيتزجيرالد الواردة في كتاب Benson بنسون حيث يصف الاخير حال فيتزجيرالد من خلال رسالة يحكي فيها بعض يومياته حين عتا عليه الكبر. ويرى الناقد الامريكي Matthiessen ماثيسن ان القصيدة ربما انبثقت في ذهن اليوت اثر تامله لتشاؤم الخيام والمقارنة بينه وبين شيخوخة فيتزجيرالد العاجزة. والحلم بالمطر اشارة الى الماء كرمز محوري في قصيدة اليوت الشهيرة «الارض الخراب». (١٢)

:

اما قصيدة (الارض الخراب) Thewaste Land، فقد نشرت سنة ١٩٢٢ وفيها يلتقي تشاؤم الخيام بقرف واحباط اليوت بسبب الخراب الذي خلفته الحرب. فالقصيدة تعبير عن الخيبة التي اعترت انسان الحضارة الغربية في العلم والتقدم المادي عشية الحرب العالمية الاولى. وكغيرها من اشعار اليوت تضمنت كثيرا من المعاني والصور والاخيلة الواردة في رباعيات الخيام، بل ان مطلع الارض الخراب هو

محاكاة لاحدى رباعيات الخيام. الا ان اليوت، لا يشير الى فيتزجيرالد او عمر الخيام في الهوامش التي ذيل بها القصيدة وابان فيها بعض المصادر التي استقى منها بعض افكار ومعاني القصيدة.

يقول الخيام في احدى الرباعيات التي أنقلها هنا نثرا عن فيتزجيرالد:

ها هي السنة الجديدة تثير الرغبات القديمة
والروح المفكرة تلوذ الى وحدتها
حين يد موسي تغطي الاغصان بالبياض
ونسمة عيسى تحيي الأرض الميتة

والسنة الجديدة، كما يقول فيتزجيرالد في هوامش ترجمة الرباعية، في اضاءة للمعني، هي (١٥): «السنة الفارسية الجديدة، تبدأ مع مقدم الربيع، وبياض يد موسى يبدو انه كان كبياض زهور مايو في الربيع عندنا، وبعث عيسى للموتى بنسمة من نفسه، رمز لاحياء الارض في الربيع».

وربما كانت هذه الرباعية الاكثر رسوخا في مخيلة اليوت عندما قرأ الرباعيات في صباه الباكر. فألحت عليه حين هم بكتابة قصيدة «الارض الخراب" فجاءت صياغة افتتاحية الارض الخراب ترديدا وترجيعا لأنغام وصور هذه الرباعية كما جاءت في ترجمة فيتزجيرالد حيث يقول اليوت:

ابريل اشد الشهور قسوة
فهو يخرج زهور الليلك من الارض الميتة
يمزج الذكرى بالرغبة
يثير الجذور الخاملة بأمطار الربيع
الشتاء ادفأنا، مغطيا الارض بثلج النسيان

تعبير «السنة الجديدة» عند الخيام يقابل «ابريل» عند اليوت لجامع الربيع في كليهما. والرغبات القديمة هي نفسها: «يمزج الذكرى بالرغبة" عند اليوت. اما يد موسى البيضاء، ونسمة عيسى، التي تحيي الاموات، فقد اجملها اليوت في قوله: «يخرج زهور الليلاك من الارض الميتة" والبياض اللون الغالب على زهور الليلاك.

اما قول اليوت: «الشتاء ادفانا مغطيا الارض بثلج النسيان" فيه اصداء من قول الخيام حسب ترجمة فيتزجيرالد: «وفي نار رغبات الربيع اخلع عنك رداء توبة الشتاء». وذلك في الرباعية التي يقول فيها:

Come, fill the cup, and in the fire of spring
The winter garment of repentance fling.

وكل ذلك مرتبط ارتباطا معنويا مع «الرغبات القديمة التي يثيرها الربيع" عند الخيام، ومع شهر ابريل الذي «يمزج الذكرى بالرغبة" عند اليوت. ولعل ذلك يتجلى اكثر في النص الانجليزي خاصة في قول اليوت:

April is the cruelest month, mixing memory and desire،

التي تقابل ترجمة فيتزجيرالد:

Now the New year Reviving old Desires،

وكذلك قول اليوت: «ثلج النسيان" Forgetful snow التي تقابل صياغة فيتزجيرالد لعبارة «الروح المتاملة" The thoughtful soul.

الرباعيات الأربع Four quartets

مجموعة القصائد المسماة (الرباعيات الاربع) هي آخر أهم ما كتبه اليوت من شعر وقد نشرها وهو في سن الخامسة والخمسين تقريبا حيث صدرت طبعتها الاولى ١٩٤٣.وهي من حيث الشكل، ليست رباعيات بالمعنى الخيامي، وانما اربع قصائد طويلة، الا ان اصرار اليوت على تسميتها رباعيات يكشف عن مدى تغلغل رباعيات الخيام في وجدانه وذاكرته الجمالية والفلسفية.

ومفهوم الزمن بأبعاده الفلسفية ووضعية الانسان فيه، هو الموضوع الشعري الذي تدور حوله رباعيات اليوت، حيث نجد ان الزمن والصيرورة الزمنية هي القضية الكبرى التي شغلت بال الخيام. فلا عجب اذن ان نجد أفكار الخيام تردد في رباعيات اليوت الاربع. في الحوار الذي اشرنا اليه في مستهل هذه المقالة يقول اليوت ان الرباعيات الاربع هي افضل اشعاره، وانه يحب ان يشعر انها متدرجة في الجودة حسب الترتيب. يستهل اليوت الرباعية الاولي المسماة «بيرت نورتن" بقوله (١٦):

الحاضر والماضي لعلهما معا في الزمان المستقبل
ولعل المستقبل جزء من الماضي.

الى ان يقول: «ما كان يجب ان يكون وما هو كائن يشيران الى غاية واحدة هي دائما الحاضر حيث اصداء وقع الاقدام في الذاكرة على الطريق الذي لم نسلكه الى الباب الذي لم نفتحه ابدا الى حديقة الورد» كلام اليوت هنا، فيه اصداء من قول الخيام حسب ترجمة فيزجيرالد التي ننقلها نثرا كالاتي:

املأ الكأس! اي خطوات تستعيد؟
انظر كيف الوقت يتسرب من تحت أرجلنا
لماذا تخشى الغد الذي لم يولد
والامس الذي ولى، ما دام الحاضر أحلى.

ويتردد المعنى في رباعية اخرى ترجمها الصافي النجفي نقلا عن الفارسية بقوله:

هلم حبيبي نترك الهم في غد
ونغنم قصير العمر قبل فوات
سنزمع عن ذي الدار رحلتنا غدا
بسبعة آلاف من السنوات

قول اليوت: «لعل المستقبل جزء من الماضي» هو نفسه قول الخيام «سنزمع عن هذي الدار رحلتنا غدا سبعة آلاف من السنوات»: اي ان الغد او المستقبل ربما يكون رجوعا الى الماضي بآلاف السنوات.

اما الاشارة الى الباب المقفل في قول اليوت: «الباب الذي لم نفتحه الى حديقة الورد» سبق ان وردت في قصيدة الارض الخراب في قول اليوت بالجزء الخامس والاخير من القصيدة: «سمعت المفتاح يدور في الباب مرة، ومرة واحدة فقط، نفكر في المفتاح كل منا في سجنه يفكر في المفتاح».

وقد جاءت الاشارة الى مثل هذا الباب في احدي رباعيات الخيام بترجمة فيتزجيرالد في قوله: «هنالك باب لم اجد له مفتاحا، هنالك قناع لا استطيع ان اراه، ما هي الا لحظات نهمس فيها لبعضنا ثم نغيب للابد».

ولكن اليوت في اضاءته لهذا المعنى في الهوامش التي ذيل بها قصيدة (الارض الخراب) لا يشير الى الخيام او فيتزجيرالد، وانما يقول انه استلهم فكرة الباب والمفتاح المفقود، من قصة وردت في الكوميديا الالهية لدانتي كما يقول انه استوحى ذلك ايضا من فلسفة برادلي حيث ظواهر الاشياء التي تحجب الحقيقة.(١٧)

عن مجلة نزوى

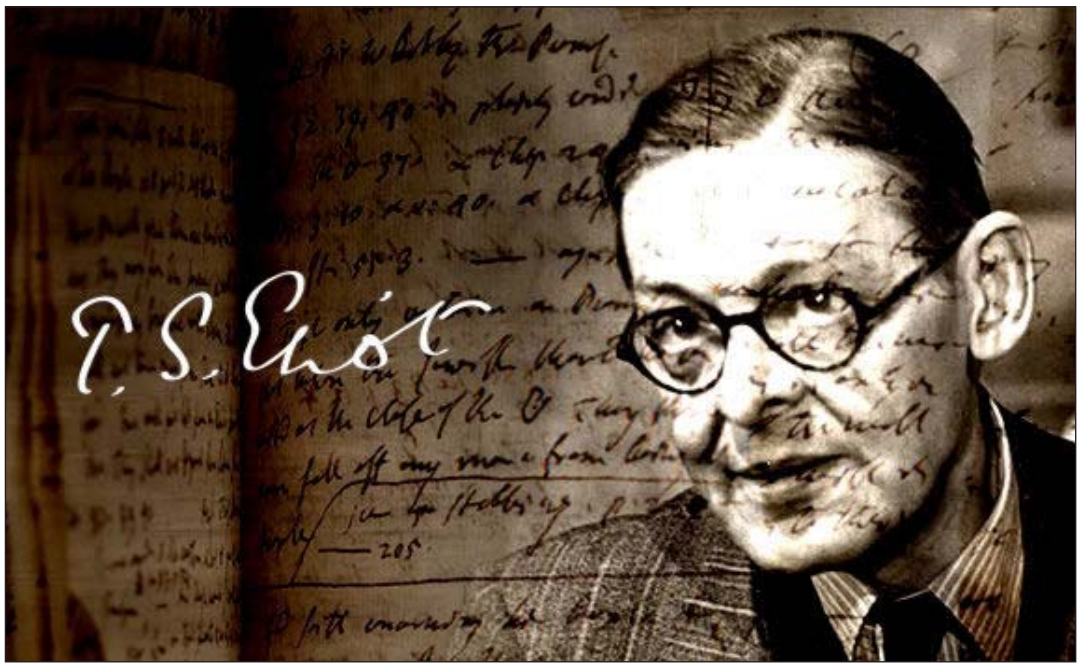

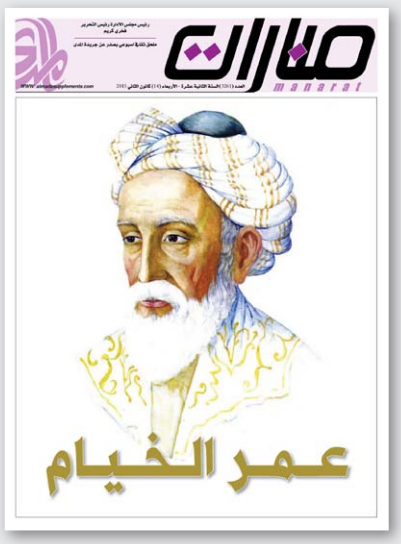

manarat
WWW. almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

نائب رئيس التحرير
علي حسين

الاخراج الفني
خالد خضير

التدقيق اللغوي
محمد حنون

طبعت بمطابع مؤسسة المدى
للاعلام والثقافة والفنون

رباعيات الخيام

ترجمة جميل صدقي الزهاوي

قد أتاني من حانة القوم صوتٌ
في بياض الصباح يغري النفوسا
قائلاً: قم نستشفّ كأس الحميّا
قبلما يصنعون منّا كؤوسا
بك قد نلتُ يا إلهي وجودي
وأنا اليوم في نعيمك أرتع
سأزيدنّ من ذنوبي لأدري
أذنوبي أم عفوك الجمّ أوسع
فئة في اليقين والشك هاموا
وفريق بالدين راموا لواذا
وإذا صائح يقول مشيراً
ليس ذاكم هو الطريق ولا ذا